کازانوفا

محمود جاویش

دار AG للنشر

Tele. 01009930002

a.gforpublishing@gmail.com

فريق الإدارة لدار AG للنشر :

صاحب الدار .. عمرو سليمان

01009930002

إهداء

إلي أمي، أختي... أصدقائي ...

محمود

1

كازانوفا

.. إليها

غرامنا كان مثل القبلة بدون حرارة ، كنا مثل اثنين يرقصان على أرض من الزجاج المكسور ، عشقتك وانتشيت ، وأسرفت في الكتمان وألقيت بالسر في بئر أعماقي ، كي لا يعلم أحد، وعندما تقابلنا وجاءت لحظة الخلاص اكتشفت أنني جهلت كيف أبوح ؟! ، كيف أعبر؟ ! وشاهدت غيري يتملكك ، فرحلت عن الواقع تاركا كل تفاصيله ، لحظة إثر لحظة، يوم بعد يوم ..إلي أن غرقت في بئر ... أحزاني ... مع حبك ...

كورنيش الإسكندرية ... الثانية صباحا

منتصف الشتاء

صف السيارة السوداء الكبيرة بجانب الرصيف، أطفأ محركها ، ثم مد يديه للمقعد الخلفي ليحضر زجاجة خمر مملوءة ، فتحها بلهفة وأخذ يجرع منها في جشع، ثم أغلقها وألقاها في عدم اهتمام إلى المقعد المجاور ، نظر إلى وجهه الشاحب في المرآة عاقدا حاجبيه في ضيق وبعد لحظات شعر بالغثيان فأخرج رأسه من نافذة السيارة وتقيأ ما شربه حتى أفرغ معدته .

أدخل رأسه مجددا بعدما ارتجف من شدة البرد ، فمد يده سريعا إلى "التابلو" وفتحه ليبحث عن منديل ، فسقطت صورة فتاة منه ، نظر إليها ، ثم مد يده ليحضرها مبتسما بعدما مسح فمه .

أخذ ينظر إلى الصورة بابتسامته الحزينة التي تداري حزنا قد ظهر في عينيه ، حتى سقطت منهما دمعه على وجنتيه برغم الكتمان ، ولكنه من شدة الحزن لم يستطع الاحتمال.

بكى بحرقة وهو ينظر إليها ، شعر وكأنه أضاعها ، ثم ضحك، و العرق يخرج من مسامه بغزارة ، فسريعا ما ألقى بالصورة في غضب وأخذ يحرك رابطة عنقه في حنق بعدما شعر بالاختناق ...

أعاد النظر إلى ملامح وجهه التي أصابتها التجاعيد من قلة الابتسامة، إنه يوم الخطوبة...

لو علمت أنني سأكون هكذا ، لوددت ألا أفيق يوما... قالها حزينا...

ثم مد يديه إلى درج التابلوه بعدما تذكر واخرج منه علبة صغيرة حمراء وفتحها، ليجد فيها ثلاثة خواتم صغيرة ، فابتسم ثم أمسك الأول وأخذ يقلبه في يده ليقرأ ما حفر في داخله ، ليقرأ " يسرا"... اسم قد حفر داخله منذ ست سنوات، فرمق وجهه في المرآة وابتسم ابتسامة تدارى الدموع التي في عينيه، ابتسامة تدل على مدى الفشل الذي وصل إليه، فأدار محرك السيارة بعدما أصابته حالة من البرود بسبب ما شربه ، وزاد العرق على جبينه وجسده فأراد أن يستنشق هواء البحر البارد عندما يسير بالسيارة ، هواء شط الإسكندرية البارد شتاء يزينه صوت ارتطام الموج في الصخر ، ليلد في وجدانك شعور لم تشعر به من قبل، إحساس قد يزيل هم عمر إذا تركت باب قلبك مفتوحا ، ولكنه لا يفيد بشيء أمام إحساس اليأس من المكان الذي طالما واجهت فيه حزن سكن ذاتك، فعندما تواجه موقف أحزنك في مكان ما، فهذا المكان يربط إياه في عقلك بذلك الموقف وذاك الشخص الذي أحزنك، فتهرب طوال حياتك من هذا المكان، فما بالك بمن أحزنته الحياة في جميع أركانها، في جميع أوقاتها ، من كل شخصياتها، ستشعر أن الحياة هي المكان الذي يحزنك فيضيق صدرك وتختنق ولكنك لا تستطيع الهروب...

تحرك بالسيارة، وعلى عجلة ضغط بكل قوته على دواسة البنزين ليهدر صوت المحرك ويغطى صوتين قد أزعجاه ، صوت ارتطام الموج بالصخر وصوت الذكريات التي تتنازع في عقله حول من سيقتله أولا...؟!

منذ ست سنوات...

" انتي اسمك إيه ؟ "

قالها بصوته الطفولي للفتاة التي تجلس بجانبه ، لتبتسم في حرج وتنظر إليه متعجبة فلم تظنه جلس ليحدثها ، لكنه قطع حبل أفكارها وقال :

- عارف إن أنا أصغر منك بس دول كام شهر بس وأظن إن ده ما يمنعش إننا نتعرف.

ابتسمت رغما عنها ، وفى هذه المرة ظهرت أسنانها، وتلونت وجنتاها باللون الزهري الجميل ، لم تصدق أنه مهتم بها إلي هذه الدرجة ،

- اسمي يسرا.
- بالألف ولا بالياء ؟

قالها ثم ابتسم ابتسامة جانبية قد شاهد بطل فلمه المفضل يرسمها على وجهه عندما يحدث فتاة ظننا منه أنها ستعجب به!، فتغيرت ملامح وجهها وظهرت عقدة الحاجب على جبهتها مما سمعت، فالفتيات يكرهن أن يعبث أحدهم بأسمائهن، فقالت :

- يعنى أنت عارف سني بالظبط ومش عارف أسمي بالألف ولا الياء؟

ابتسم ابتسامة راجية بعدما شعر وأن اللعبة عادت إلى خانة البداية ، فلعن في سره هذا البطل الذي حاول أن يقلده، وقال دون تفكير:

- بالياء طبعا دى حاجة مش محتاجة سؤال بس أنا حبيت أتأكد بس.

فابتسمت بعدما نظرت إلى الأرض، ثم أومأت برأسها أن نعم، ورمقت الساعة في اهتمام، فقال:

- عندك درس؟

نظرت له بعدما ارتفع حاجباها في غضب وكأنما تأخر من تنتظره عن موعده، ثم قالت:

- أيوة عندى درس ، وهيبدأ دلوقتى.

ثم وقفت ومدت يدها لتسلم عليه، فرفع حاجباه متعجبا من طريقتها، أراد أن يبتسم ، ولكنه لم يجد شيئا يبتسم بسببه ، وشعر أنها تود الرحيل، أدرك ذلك عندما رمق ساعته ووجدها الثالثة والنصف، ودرسها في الساعة الرابعة...

مد يديه، فسلما على بعضهما ، ثم رمقته مبتسمة وأشارت إلى سيارة أجرة ثم ركبتها وانطلقت، وظل هو رامقا يده في ذهول مما حدث، فلم يحلم أن يحدثها يوما والآن يمسك يده التي لمست يدها منذ لحظات، ما أجمله حلم عشته!، وما أجملها فتاة...

تعود دائما أن يعد سلالم الدرج سلم إثر سلم ولكنه في هذه المرة لم يكن ينظر إليه مطلقا، كانت الابتسامة على وجهه يصاحبها شوق يظهر في عينيه ، تلك اللمعة

الخفيفة في العين التي تفضح العشاق، كم هو صغير على الحب ؟! ، لكنه دوما ما اعتقد أن الحب لا يشترط له سن... السابعة عشر من عمره ، مراهق في الصف الثاني الثانوي، فكرته عن الحب لا تتعدى نظرة من فتاة أحب شكلها... أنت الآن تعلم انه مراهق يعشق مراهقة ولكنك لا تعلم أن في حياة كل شخص منا حكاية في سن المراهقة قد غيرت مجرى حياته إما للأسوأ وإما للسيئ ، فهي دوما لا تغير للجيد...

أنهي الدرج بعدما وصل إلى السطح، وقف أمام بابه الخشبي القديم، ثم أخرج صوت غريب من فمه يشبه الصافرة ، ليخرج شاب في السابعة عشر من عمره ، سمين بعض الشيء من الغرفة فوق السطح مبتسما ومقتربا من الباب ليفتحه، وقال الشخص:

- سبع ولا ضبع؟

فرد الآخر ضاحكا:

- نعامة يا أهبل.

فضحك الآخر مفتحا الباب، وقال بصوته الرفيع صائحا:

- وصل كازانوفا يا رجالة.

فلكزه الآخر في كتفه مبتسما ثم قال:

- هتفضحنى يا ياسين.
- مفيش حد غريب... ادخل.

فدخل كازانوفا وأغلق الباب خلفه ثم تبع ياسين إلى الغرفة، وعند دخولهما استقبله من بالغرفة في صخب، أحدهم يطلق السباب، والآخر يقلد صوت الخنزير، فضحك ياسين ونظر إلى كازانوفا وقال :

- أنت اتأخرت أوى الصراحة.

فقال كازانوفا:

- أصلى كنت مع صحبتي.

قالها بتلك الطريقة، ليزيد ثقته بنفسه وليضع لذاته مكانة عالية بينهم فلطالما شعر بالمنافسة بينهم ، فاحتل الصمت الغرفة، بعدما قال كلمته، فنظر له ياسين مبتسما فرحا مما سمع، فلقد وصل أحدهم أخيرا إلى خطوة أكبر، وخاصة أنه كازانوفا...

وقف أقصرهم على كرسيه وابتسم ابتسامة عذبة غريبة لا يفهمها إلا كازانوفا واقترب منه ووضع يده على كتفه وقال:

- مش هتحكيلنا طيب؟

فقال كازانوفا:

- طيب أسلم عليهم الأول.

ثم ابعد القصير يده وسار كازانوفا بعدما مد يده أمامه ليسلم على من وجد في الغرفة ، فأمسك الأول يده واحتضنه بقوة ، وقال بصوت خفيض في أذن كازانوفا:

- يسرا ؟

فأومأ كازانوفا برأسه مبتسما أن نعم ثم قال :

- أيوه يا ادم هي ، ثم ابتعد بعدما زادته أسئلتهم علوا ، واقترب من آخرهم الجالس في أبعد ركن من الغرفة ينظر إلى كازانوفا مبتسما، ثم سلما على بعضهما، وقال موجها حديثه لأقصرهم:
- يلا نحتفل يا آسر؟

فصاح آسر قائلا:

- دا أكيد، اللى عمله كازانوفا معملوش حد فينا.

ثم استطرد قائلا:

- بس يحكي لنا الأول إيه اللي حصل.

طلب آسر اللحوح أثقل كازانوفا بالهم، لم يرد التحدث فما فعله ليس بالأمر الذي يسمح له بالتفاخر به، ولكن جلستهم حوله وتركهم له الكرسي في منتصف الغرفة ما جعل حديثه أمر واقع واجب التنفيذ...

جلس على الكرسي وأخذ يرمقهم بطرف عينه، ثم تنهد وأغمض عينيه وقال:

- أنتم عارفين يسرا؟

فرد آسر:

- البنت الأكبر مننا بسنة دى؟ ... مش دى في تالتة ثانوي باين؟

فأومأ كازانوفا برأسه أن نعم ثم قال:

- أنتم طبعا عارفين إن أنا معجب بيها من يوم ما شفتها في النادي، وقلت لكم البنت دي عجباني ولازم أتكلم معاها وأصاحبها... المهم كنت فاكر إن فرق السنة ده ممكن يعمل مشكلة بس بالعكس...

شعر أنه يزيد من وطأة حديثه مما سيجعلهم أكثر ولعا لمعرفة ما سيحدث، فمنهم من يتخيل ومنهم من يستمع بإنصات، فقرر أن يعود إلى نقطة البداية...

- تابعتها من أول الدراسة وعرفت أن عندها درس انهارده في سيدي بشر، وكل مرة بتروح تقعد على الكرسي اللي بيطل على البحر لوحدها ساكتة بتبص في الساعة... بس انهاردة بقي مقعدتش لوحدها.

ثم صمت بعدما شعر من نظراتهم أنه جذب انتباههم أكثر فأكثر وأن أي سيناريو سيتم تصديقه، فأردف:

- رحت قعدت معاها واتكلمنا.

فابتسم آدم، ومن بعده ياسين، وأدار الآخر وجهه إلى المكتب القديم في ركن الغرفة الشرقي، وعقد آسر حاجبيه ثم قال:

- أيوة كل اللى فات عارفينه، خش ع السخن بقي... عملت ايه؟
- قلت لها اسمك ايه؟ ... قالت أسمي يسرا... قلت لها بالألف ولا الياء؟ ... قالت بالياء، بس ومشيت عشان أنا كنت رحتلها متأخر أصلا.

فأصيب الجميع بالذهول مما حكاه كازانوفا، هل هذا ما تحاول أن تشوقنا اليه؟!، هذه الجملة هي لسان حال ما جال في فكرهم في تلك اللحظة، فاخرج آسر سبة

دون قصد ناظرا إلى الأرض، وأمسك ياسين بقطعة دومينو قد تركوها البارحة وألقاها في وجه كازانوفا، فابتسم الجميع، ثم قال كازانوفا:

- أعمل إيه يا جدعان أول مرة أتكلم مع بنت.

فقال آسر موجها حديثة للشخص الجالس بعيدا:

- هات الحشيش يا عمر خلينا نحتفل بالولا حاجة.

فرد عمر الذي مد يده الى درج المكتب مبتسما، ثم اخرج قطعة بنية مربعة وأعطاها لآسر ثم قال:

- بس مش عايزين نخلصها كلها دلوقتى ، انا عندي تمرين كمان ساعتين ولازم أروح فايق.
- يا صحبى متخافش، الحشيش بيقوى البدن.

فصاح آدم غاضبا من طلب آسر:

- يا بني عندنا درس كمان ساعة أنت بتهزر أكيد.

فتبعه ياسين قائلا:

- يعنى أنت سبت بيقوى البدن وأن عندكم درس دى اللى ضايقتك أوى.

فضحك كل من بالغرفة ومن بينهم آدم، فقال آسر مبتسما:

- اضحك بقي وخلى البساط أحمدى.

فقال آدم مغلوبا على آمره:

- طيب بسرعة بقي، ويلا نروح الحصة دى متدهولين وخلاص، بس كل الى في الأوضة يوعد إن دى آخر مرة نشرب فيها حشيش وسجاير.

فرد الجميع في نفس واحد، أنها ستكون المرة الأخيرة للتعاطي، ماعدا كازانوفا الذي ظل رامقا يده التي سلمت عليها، وقلبه الصغير يخفق من شدة الشوق، إحساس جديد على قلب المراهق الصغير، إحساس بالخوف الجميل الذي يصاحب أول حديث مع فتاة وأول لمسة ليدها ، شعور كفيل بأن يغير مجرى حياته الى السبيل الذي يريده، ويجعله منتظرا على أحر من الجمر للقاء قادم يزيد الإحساس حتى يعتاد عليه، ذلك الإحساس كالإدمان الذي يصيب المدمن، فلا يستطيع المدمن كرهه ولا يستطيع حب الإدمان...

****

منذ أربع سنوات...

صوت الجماهير الصاخب في المدرجات الصغيرة التي تحيط بالملعب هي التي تدفق التوتر داخل عروق اللاعبين في الدقائق الأخيرة من المباراة، وكانت يسرا تتوسط هؤلاء الجماهير وحولها صديقتاها، تنظر كل واحدة فيهن إلى بطلها الخارق في ارض الملعب، ويتابعن المباراة النهائية في دوري المدينة، المباراة أحد طرفيها فرقة " الزلزال " والتي عرفت بقوة لاعبيها... كازانوفا حارس المرمى المغوار الذي يطير في الهواء ويرتطم بالأرض لا يعبأ بالجروح التي تصيب ذراعيه وركبتيه ولكن ما يهمه هو أن يحافظ على شباكه نظيفة حتى النهاية ، وعمر المدافع القوى، والذي برغم صغر حجمه إلا أنه يرمى بجسده في أية بقعة من الملعب حتى يعيد الكرة إلى فريقه... وخط الوسط والذي يتمثل في آدم السريع، والذي يركض طوال المباراة بطول الملعب يساند هنا وهناك دون شكوى، وبجانبه نقطة ضعف الفريق، ياسين القاتل، والذي يغضب عندما يمر لاعب من فريق الخصم من جواره نظرا لثقل حجمه فيضطر أن يضربه بقوة، أما يلحق به إصابه قوية تبعده عن اللعب لفترة طويلة، وإما يغضب الفريق المنافس فتنقلب المباراة إلى معركة دامية بين عشرة أشخاص... وفى قلب الهجوم آسر والذي يلعب من أجل هتاف الفتيات خارج الملعب، يحب وضع الكرات في مرمى المنافس بأوضاع مختلفة ليحظى بتصفيق وشهرة في أرجاء النادي، يعشق كرة القدم ولهذا هو قائد الفريق...

كانت المباراة في آخر دقائقها، وتعالت صيحات اللاعبين في الملعب وخاصة كازانوفا عندما أتت الكرة إلى آسر أمام المرمى منفردا به، ليطلق آسر قذيفة تمر بجوار القائم وترتطم بقوة في وجه فتاة في السابعة عشر من عمرها كانت تقف

خلف المرمى تشاهد المباراة في حماس، لتقع الصغيرة على الأرض باكية من قوة الضربة، فتعالت صيحات الجمهور ضحكا على مظهر الفتاة، وبعد ثوان بسيطة ركض كازانوفا إلى الفتاة ليطمئن على وجهها، وعندما وجدها تبكي، ربت على كتفها ثم قبل جبهتها محاولا أن يحنو عليها ويقلل مدى الألم الذي تشعر به، وقال لها في هدوء:

- أنا آسف أنا بجد مكنتش اقصد.

حاولت أن تتكلم ولكن الغصة في حلقها منعتها من كثرة البكاء، فسألها كازانوفا مبتسما:

- اسمك إيه يا قمر؟

فردت بصوت خفيض:

- اسمي فرحة، بس مش إنت اللى شوت الكورة، كان اللى هناك ده.

أمسك يديها عندما كانت تشير على آسر، ليقول مقاطعا حديثها:

- لا أنا اللى شوت الكورة انتى بس الى ما اخدتيش بالك، ولتانى مرة بقولك انا آسف.

ثم أمسك بيدها وحاول أن يسندها حتى تقف وتمسح ملابسها، بعدئذ سمع صيحات أصدقائه تناديه ليعود الى مرماه بعدما قام الفريق الآخر بالهجوم دون أن يعود، فقال لها متسرعا:

- روحى دلوقتى حطى عليها تلج وبكرة إن شاء الله مش هيبقى فيها حاجة.

رفعت رأسها لأعلى بسبب طول قامته بالنسبة لها للتلاقي عيناهما معا، ثم ابتسمت رغم الدموع وقالت بنبرة صوتها الطفولي الرفيع:

- حاضر يا كازانوفا.

فابتسم، فابتسمت، ثم رحلت عن الملعب تفكر في فتى أحلامها الجديد!، فالفتيات في ذلك السن يحببن في اليوم عشرات المرات، وفى الغد يجددن أحبتهن، فيكفي الشاب أن يبتسم لها لتحبه! ...

وظل هو ناظرا إلى الأرض شاردا في آخر كلمة قالتها له، فحلمه الثاني يتحقق الآن بعد سنتين، أن تعرفه جميع الفتيات في البلدة باسم كازانوفا، وها هي الفتاة الصغيرة قالتها له، يا له من يوم، وقف مع فتاة تعرفه بكازانوفا وقبل جبهتها ويسرا تجلس بين الجماهير تشاهده، فيكيدها مثلما كادته منذ عام، والبطولة التي سيكسب...

تذكر البطولة عندما سمع صافرة الحكم يعلن نهاية المباراة ، فينظر إلى وجوه أصحابه، ليجدهم غاضبين بسبب إهماله، فخروجه تسبب في هدف والمرمى فارغ! ...
وانتهت المباراة.

فاستدار وشرع بالركض عندما وجدهم يركضون خلفه غضبا وعلى وجهه تظهر فرحة! ...

منذ ثلاثة أعوام ونصف ...

" بيوت بتحضن جوة منها قلوب كتير/ باب بيقفل على الجناينى وعلى الوزير شبابيك مواربة من وراها واقفه الصبايا/ قضو النهار في الوقفة قدام المرايا ..."

كلمات أغنية أخذ يتمتم بها كازانوفا عندما كان واقفا بجانب آدم على ناصية الشارع الذي تقع مدرسة الفتيات الثانوية في آخره، كانا في انتظار خروجهن من آخر امتحان من امتحانات الثانوية العامة ، فقال آدم مجهدا من حرارة الجو:

- فاضل قد إيه يا كازانوفا؟

فابتسم كازانوفا ببرود، ونظر لساعته ثم قال:

- اصبر يا آدم ، فاضل نص ساعة .
- يعنى أنت منزلنا في عز الحر بدري ولسه فاضل نص ساعة يا كازانوفا

ثم أخرج آدم سبة، ولكن كازانوفا قد شد انتباهه ناحية فتاة تسير ببطيء وتتجه إلى الشارع الذي يقفان فيه، أخذت تنظر بطرف عينيها ناحية كازانوفا، وظل الأخير يتابعها معلقا نظره عليها ولم يرمش له جفن، فلفت انتباه آدم حملقة كازانوفا بتلك الفتاة ، فسأل حائرا:

- يا بني أنت نازل تشوف مين بالظبط؟

فابتسم كازانوفا ابتسامة جانبية، عندما مرت من أمامهما ناظرة بطرف عينيها تجاهه ويظهر على وجهها جفاء دوما ما كان يلاحظه كازانوفا، ثم قال متجاهلا حديث ادم:

- البنت دى كل ما أشوفها تبصلى بطرف عنيها، بس في عنيها نظرة حزينة وعمري ما شفتها بتضحك، تعرفها ؟ فرد آدم بعدما أخرج زفيره غاضبا ثم بصق على الأرض :
- أنت حيوان يا كازانوفا

فضحك كازانوفا مستهزئا وقال:

- مابقاش كازانوفا.

فابتسم آدم رغما عنه ثم قال:

- أنت ليه مش زينا يا بنى، ليه مش بتثبت مع واحدة لفترة ، أنت طالع لمين ؟
- عارف يعنى إيه كازانوفا؟
- لا طبعا، دا لقب ياسين قلنا ننديك بيه من 7 سنين من أيام إعدادية يعنى.
- كازانوفا ده أكتر واحد في التاريخ عرف بنات.

فرد آدم مبتسما: لا يا راجل .

فاستطرد كازانوفا:

- رحالة إيطالي من القرن الثامن عشر، سافر دول كتير وكان شاعر كمان في بلاط الحكام في الدول دي.
- اه، يعنى إيه بلاط بقي؟

- يعني سيراميك يا تافة.
- طب عليا الطلاق أنت لو بتذاكر بالطريقة دي كنت جبت 98%

فابتسم كازانوفا مستهزئا ، ثم قال:

- كان كازانوفا جابها !

ثم قال مستدركا بعدما تذكر:

- مقولتليش اسمها إيه؟

فنظر له آدم غاضبا من سؤاله، ثم قال:

- عايز تعرف اسمها ليه ؟
- مجرد فضول.

فرد آدم بعدما اخرج سيجارة من علبة سجائره وأشعلها، وأخرج واحدة لكازانوفا:

- اسمها نور، كانت معايا في ابتدائي، بنت محترمة ومعرفتش ولد قبل كده، وبلاش دي يا كازانوفا.

فنظر له كازانوفا متسائلا من طلبه، فأردف آدم:

- أبوها وأمها ماتوا وهي صغيرة وملهاش غير أخت كبيرة وجدة عايشة معاها في البيت، ومش هتبص لواحد صايع زيك، فبلاش تحرج نفسك معاها بعد كل دا.
- تصدق كلامك عنها شدنى ليها اكتر، هي في كلية ايه؟

فامسك آدم السيجارة ثم أسقط بعض من رمادها على ملابس كازانوفا، فأخرج كازانوفا سبة ثم قال: يا بني هزعلك.

فضحك ادم ضحكة عالية ثم رمق رغما عنه اخر الشارع، ليجد تجمع هائلا من الفتيات قادم تجاههما ، فقال آدم بصوت خفيض مع ابتسامة مستهزئة:

- قفل بقي عشان فرحة حبيبتك جاية على يمينك...

من دفتر الواقع

أفاق من شروده الحزين وعلى وجهه ابتسامته التي لم تفارقه يوما، عرف في صغره بروحه التي تمتزج بين الغزل والمرح والتي دائما ما تظهر في أشد أحزانه، فاعتاد أن يكسر السقم بكلمات اشتهر بها تلطف الجو المثقل وترسم الابتسامة في وجوه الحزانى، وفى أفراحه تصاحبه الضحكة قبل أي شيء ، كازانوفا الشاب الذي تخطى الثلاثة وعشرين ربيعا، توفي والده عندما كان صغيرا، فعاش يتعلم الحياة مع والدته المسنة، حتى توفيت فى اوائل العام الماضى، فلم يتحمل...

ميزته وسامته في جميع المجالات التي اشترك بها، وبذوقه الرفيع في الملابس، يعشق الجلوس وسط الجمع ولكنه يرتاح وحيدا ، يعلم أن الوحدة تتعبه ولكنه قرر أن يبقى وحيدا ليفهم تلك الحياة البغيضة كما سماها...

أفاق عندما شعر بقطرات العرق تتساقط على عينيه من جبينه، فأصيب بألم بسيط في عينيه مما جعله يكبس الفرامل بضغطة قوية ارتفع معها صوت صريرها ومن ثم تسببت في اعوجاج السيارة عن مسارها يمينا ويسارا بطول الطريق، ولكنه مازال مبتسما، فذلك الخمر الذي شربه جعله مضطرب الإحساس، ليس خائفا على نفسه بل بالأحرى لا يعبأ لشيء في الدنيا، كل ما يريده هو كثير من الهواء يسد مسامه التي تتصبب عرقا...

وقعت زجاجة الخمر أسفل السيارة ومعها هاتفه الذي قد وضعه في المكان بين الكرسيين، فأوقف السيارة بعدما تحكم بها ببضع حركات يمينا ويسارا، ثم امسك بهاتفه النقال ومازالت ابتسامته تزين وجهه المتجعد من كثرة البكاء! في الأيام الماضية...

أمسك بهاتفه وفتح برنامج "الفيس بوك" كما أدمن، فهو يتفحصه كل دقيقة ، ضغط على مستطيل البحث ليجد قائمة من ثلاثة أسماء حسابات على الموقع، ضغط على الأول في اهتمام وكان باسم " يسرا حسن " لتفتح له صفحتها الشخصية، يفضل متابعة حسابات كل من عرفهن ليطمئن قلبه وليعرف مدى الوحدة التي أصبح بها، عندما يشاهد مدى النجاحات التي وصل إليها كل من غير في شخصيته قاصدا أم لم يقصد، فيشعر وكأنه ثابتا كالصخر في مكانه، كالنبتة التي تخرج عشرات الثمار وينتهي بها الحال تحت قدم احدهم يقطعها إربا أو مبللة بالبنزين استعدادا لحرقها، أو كالصديق الذي يودع أحدا يعرفه يرحل على متن سفينة الحياة تاركا إياه على اليابسة يشير إليه بمنديل ملون في زمن الخمسينات وعلى وجنتيه دموع لا نعلم إن كانت فرحة ام بؤس...

أخذ يتفحص منشورها الأخير الذي نشرته منذ ساعة والذي تمثل في:

" يوم جميل أوى يا بنات، وأحلى حاجة فيه مفاجأة محمد خطيبي ☺، ربنا يخليه ليا يا رب... "

فأغلق الصفحة عندما شعر بالحزن مما قرأ، ثم ضغط على الاسم الثاني " فرحة احمد "، ليجد منشورها منذ دقائق:

" أنا خايفة حالة الاكتئاب دى تستمر وتدمر حياتي أكتر ما هي متدمره ، ربنا ينتقم من اللى كان السبب "

ابتسم مستهزئا مما قرأ، فأغلق الصفحة، وضغط على الاسم الثالث والأخير " نور طارق "، ليجد منشورا منذ يوم فيه:

" حاولت أن انتظر ولكن الزمان يقف بيننا... "

ثم أغلق البرنامج بعدما زادت حدة الأحزان، ثم أدار المحرك مرة أخرى، ليستمتع بهواء البحر البارد لعله ينسي، وبعد لحظات تحرك بالسيارة ورفع من سرعتها...

****

من دفتر الذكري

منذ ست سنوات...

بعدما مر أسبوع على الميعاد الأول، قرر أن يذهب مبكرا إلى مكان جلوسها في ذلك اليوم، الساعة في يده تقترب من الثالثة، جلس ناظرا يمينا ويسارا بحثا عنها فلم يجدها، ليعود بظهره إلى الوراء ويغمض عينيه ويستنشق الهواء البارد الذي يرسله البحر ناحيته، كم هي جميلة تلك الطبيعة، تأتيك بجمالها بما تشتهى ومتى...

وبعد لحظات فتح عينيه عندما تذكر نصيحة آدم له بان يأكل علكة قبل الميعاد بقليل ليغير رائحة فمه لتجذبها ! ، فأخرج علبة صغيرة وأكل ما بها من علك، ثم تنحنح رامقا يمينه، ليجدها تسير ببطيء ناظرة إلى الهاتف في يديها بتركيز وتحرك أصابعها وكأنها تكتب شيء باهتمام...

سمعت صوته فنظرت اليه وابتسمت متعجبة من وجوده في مكانها في هذا الوقت ، فمدت يدها مرتبكة وأومأت برأسها لتحييه، ثم جلست بجانبه بعدما أغلقت الهاتف سريعا ووضعته في حقيبتها، فقال:

- ازيك يا يسرا؟

فردت بصوتها الخفيض:

- الحمد لله.

ثم صمتت، فشعر بالارتباك يضرب لسانه، ولكنه فكر لدقائق انه محتم عليه أن يتحدث، أن يكسر ذلك الصمت الذي يربكهما، فقال مبتسما بنبرة بها قليل من الحزم:

- يسرا أنا بحبك...

فنظرت له متعجبة من مفاجأته، وظل رامقا الأرض بعدما شعر بسرعة دقات قلبه، والتعرق الذي أصبح فيه بعد تلك الكلمة، وبعد لحظات نظر إلى عينيها ثم امسك يدها الباردة وقال على عجلة:

- أنا عارف إن فرق السن بينا ممكن يبقى مشكلة، وعارف إن إحنا صغيرين على الكلام دا وعارف إن كلها سنة وهتدخلى كلية وممكن تقابلى أحسن وأكبر منى بس أنا مش طالب كتير، أنا طالب منك بس كلمة...

فتوترت بعدما شعرت بذلك التدفق في المشاعر، لم تسمع هذا الكلام بتلك الطريقة من أحد مطلقا ، ان هذا الفتى يعشقها، ولكنه قد أتى في الوقت الخاطئ... فقطع هو حبل أفكارها قائلا بتلك النبرة:

- مش لازم تقوليها دلوقتى أنا مستعد استنى فترة ممكن تفكرى فيها...

فوضعت إصبعها على شفتيه لتجعله يصمت، ثم قالت بصوت ضعيف يكاد الا يسمع:

- كازانوفا انا بحبك...

قالتها، فصمت مبتسما، ظل مذهولا لدقائق، ويده تحتضن يدها، لم يشعر بالوقت ولم تشعر هي، ظل رامقا إياها وتلك اللمعة في عينيه تفضح حبه الكبير لها، تجلى ولعه بعشق تلك الفتاة ذات الأعين البنية، وظلت هي ترمق الأرض شاردة فيما قالته... فشعر بأنها تحارب تلك الوساوس في عقلها، فقرر أن يكمل الحديث قائلا:

- أكتر حاجة حببتنى فيكى، إنك معرفتيش ولا ولد قبل كدة، إنك واحدة عندها 18 سنة ولسة معرفتش ولد.

ظلت صامته شاردة تفكر فيما قالت، وتومئ برأسها لتجعله يكمل حديثه الذي لم تنتبه له، فلاحظت صمته عندما انتهى فقالت:

- طبعا.

ثم صمتت، فنظر إلى ساعته ليجدها الرابعة، ابتسم ابتسامه جانبية ثم قال:

- احنا محسناش بالوقت... هي كده اللحظات الجميلة بتمر من غير ما نشبع منها.

فنظرت هي الأخرى إلى ساعتها، فصرخت دون قصد، وقامت فزعة من مكانها، تمسك يديه وتقول على عجلة:

- أنا آسفة يا كازانوفا أنا همشى عشان الدرس، والأسبوع اللى جاى نتقابل هنا ونتكلم في تفاصيل كل حاجة.

فابتسم من تسرعها وقال:

- مستنيكى يا حبيبتي.

فأوقفت سيارة أجرة ثم نهت له بيدها وانطلقت، ليرمق هو السماء ضاحكا وتتلون وجنتيه باللون الزهري، ويفكر فيما حدث...

وبعد مرور ساعات قليلة وصل سيرا إلى الكافية الذي يطل على البحر، الكافية الذي اشتهر عن مجموعتهم المكوث فيه، نظر إليه عندما وصل أمامه، فوجد ادم يجلس في طرف صف الكراسي التي يجلسون عليها، ممسكا بهاتفه ويحدث شخص، وبجانبه اسر الممسك بسيجارة ويجلس قدم على قدم، وينظر إليه مبتسما، وبجانبه ياسين يقرأ في كتاب الرياضيات للصف الثالث الثانوي وبجانبه عمر يشاهد على هاتفه أفلام صغيرة المدة عن تعليم مهارات كرة القدم...

ألقى السلام عليهم، ثم أخذ كرسي وجلس أمامهم وظهره للبحر مبتسما لا يعبأ بشيء إلا ما فعله منذ قليل، ابتسم ثم قال:

- اعترفت لها...

ثم صمت، ليلفت اهتمامهم كضوء كسر ظلام في غرفة قد حبسوا فيها، ثم ضحك مقلبا نظره ناحيتهم، فأغلق ادم المكالمة دون أن يقول إلى اللقاء، وألقي ياسين الكتاب مبتسما، وأغلق عمر الهاتف ناظرا له متعجبا، فقال كازانوفا ناظرا إلى آسر الذي لم يظهر عليه أية معالم للذهول:

- قلت لها بحبك، فقالت وأنا كمان بحبك...
- ازاى؟، ازاى مرفضش؟

فعقد كازانوفا حاجبيه متسائلا من طريقة اسر في الحديث، فتابع آسر حديثه مادحا بعدما شعر انه اخرج مشاعر ليست في وقتها:

- مبروك يا كازانوفا، عقبالكم يا خرفان.

ثم أخذ نفسا من السيجارة وأخرج الدخان ناظرا إلى فنجان القهوة الموضوع على الطاولة أمامه، وظل كازانوفا ناظرا إليه بعدما تعجب من طريقته، كيف له أن يرد بتلك الطريقة وهو من وددت أن احكي له ليفرح لي؟، لقد بدأ الشك يتسلل إلى قلب كازانوفا...

فقاطعه صخب آدم في الحديث قائلا:

- ايوة بقي يا كازانوفا يا معلم.

فابتسم كازانوفا ناظرا إلى ادم المبتسم فرحا بما سمع، ثم قال:

- كدة بقيت تانى واحد في الشلة بعدك.

فلكزه ياسين في كتفه بقوة دليلا على مدى الفرحة التي أصبح فيها، ثم قال:

- طيب أخدت رقمها؟
- لا

فعقد ياسين حاجبيه متسائلا، فأردف كازانوفا:

- التوتر منعنى انى أفكر.

قالها كازانوفا بصوت بارد حزين، وكأن شعلة فرحته قد انطفأت ببرود كلمات آسر، فشعر ياسين به وقال مغيرا سير الحديث:

- اوباا توتر، انت عملت ايه بالظبط؟

فابتسم كازانوفا من روح ياسين المرحة، ثم قال:

- مسكت ايديها وقلت لها بحبك.

قالها بشيء من التعالي ثم نظر إلى آسر الذي رمق كازانوفا غاضبا من تلك النبرة، فرد ياسين:

- أنا في تالتة ثانوي ولسه ممسكتش ايد واحدة، وأنت يا اللى أصغر مني بسنة مسكتها وقلت لها بحبك.

فقال كازانوفا بنفس نبرة التعالي:

- أتمرن بقي.

فابتسم ياسين عندما شعر أن كازانوفا رد الإهانة لصاحبها، فلقد تعودوا أن يشكلوا مجرى الحديث ليخرج أحدهم منتصرا على عنجهية من يجلس معهم...

ظلوا صامتين، بسبب حديث كازانوفا، فبطريقته تلك لا يعني إلا انه أفضل منهم، لا يعنى إلا انه أشعل غيرتهم ، فلقد أحب فتاة وظل ورائها حتى أحبته ، هذا ما لم يفعلوه هم ، هم يبحثون عن السهل ، يتلذذون عندما يصلون إليه، ولكنه أحب الصعب حتى النخاع...

منذ أربعة أعوام ونصف العام...

رن هاتفه بينما كان جالسا بين الجمع، جميعهم ينتظرون لحظة النطق بنتيجة الانتخابات، تلك الانتخابات التي تمنى كازانوفا أن تكسبها هي ليس هو، انتخابات قد عقدت لأول مرة في النادي، انتخابات رئيس مجالات الشباب الخاصة بالرحلات والتجمعات، والتي ترشح لها كازانوفا وأمامه ثلاثة منافسين ، ولدان في الصف الثالث الثانوي وفتاة في الصف الثانى الثانوي، ليست من عادة كازانوفا أن يدخل في سباق ويخسره فلم يعرف الخسارة يوم، ولكن تلك المرة كانت تجبره ابتسامتها على الانسحاب، ولكنه أراد أن ينافسها ليفتح مجال للحديث معها...

أخرج هاتفه من جيبه ناظرا إليها مبتسما، ثم رد على ادم الذي كان يتصل به، وقال بصوت خفيض لألا تسمع:

- أنت فين يا حيوان؟
- انت بتشتمنى كمان، يعنى أنا يا متخلف سايب ندا ملطوعة في الشارع ومجمع العيال وجاى وانت تشتمنى.
- خلاص ياعم انا اسف، انت فين؟
- انا قدام النادى، فاضل قد ايه والانتخابات تخلص؟
- فاضل 10 دقايق ويعلنوا فوزها.
- طيب مادام كده كده انت هتسبها تكسب عايزنا ليه؟

- افهم ياض ، ما هو أنتم لما تدخلوا وتلاقى العدد كبير وصحابي كمان هتقلق، بس بعد كده لما تلاقى نفسها كسبت تفرح ياض.

فابتسم آدم، فابتسم كازانوفا، فقال ادم:

- أنت عايز تتعالج يا بني.

فضحك كازانوفا بصوت عالي رغما عنه، فنظرت إليه غاضبة من تلك الطريقة التي يتحدث بها في الهاتف، فلقد ظنت انه يحدث فتاة!، فأغلق كازانوفا المكالمة في وجه آدم بعدما لاحظ نظرتها الغاضبة، فابتسمت ونظرت في الساعة، فقاطعها صوت صخب الأربعة في مدخل الغرفة، فمنهم من يطلق السباب، ومنهم من يقول " عندكوا انتخابات؟ "، وتبعه الآخر قائلا "كازانوفا غيره مفيش..." فوضع الأخير يده على فم المتحدث ليسكته بعدما شعر وانه سيطلق سبة...

فصاح ياسين موجها حديثه إلى كازانوفا دون اهتمام لنظرات الموجودين:

- ها فين الانتخابات بالظبط؟

فوقفت فتاة من الصف الأول للجالسين تنظر لهم غاضبه من طريقتهم المزعجة في الدخول، فقال ياسين:

- الانتخابات حلوة أوى يا كازانوفا.

فضحك الخمسة ومن بينهم كازانوفا، فصاح منظم الانتخابات غاضبا:

- لو سمحتم احنا في مكان محترم، باب الترشح اتقفل فلو عايزين تدلوا بأصواتكم ادخلوا الغرفة دى.

ثم أشار بيده إلى الغرفة بجانب الباب، ليدخلوا اليها، فنظر كازانوفا الي الفتاة مبتسما ابتسامة جانبية تدل على الثقة، فعقدت حاجبيها غضبا فلقد شعرت أن الكافة تتجه نحوه في الانتخابات، وكيف يحدث؟! وهي من جمعت صديقاتها ليدلين لها بأصواتهن، فقطع كازانوفا تفكيرها قائلا وموجها حديثه للمنظم:

- هو لو في اتنين اتعادلوا في الأصوات، ممكن يكسبوا مع بعض؟

فرمقت المنظم باهتمام منتظرة إجابته التي تتمناها، فقال المنظم:

- أيوة ممكن.

فضحك كازانوفا، فضحكت هي من ضحكته، لا تفهم لماذا يضحك فمن الصعب أن يتعادلا، ولكنها فرحة بتلك الفرحة...

خرج الأربعة من الغرفة واحدا تلو الآخر ينظرون اليها ثم إلى كازانوفا، واللذان ينظران إلى بعضهما دون اهتمام للحاضرين، فتنحنح ادم وقال:

- مبروك يا كازانوفا.

فنظرا إليه، ثم إلى المنظم الذي وقف مكانه وقال بصوت مسموع لمن في الغرفة:

- انتهى الوقت، والآن سيتم فرز الأصوات وبعد دقائق سيتم إعلان النتيجة...

فقال آدم لياسين بصوت خفيض:

- هو بيتكلم باللغة العربية ليه؟

فابتسم ياسين وقال:

- دى دبلجة اكيد.

فتدخل آسر في حديثهما قائلا:

- بس مبروك على كازانوفا الحقيقة، البنت جميلة، ربنا يسعده.

فنظرا إليه مبتسمين، فلقد تعلم من خطئه أخيرا، ولكن بعدما ؟!

فقال عمر متدخلا في حديثهم:

- هو لو كازانوفا كسب، الراجل هيقول اسمه قدام الناس دى كلها؟

فنظروا إلى عمر الذي وجه سؤالا في وقته، كيف سينادى المنظم كازانوفا إذا انتصر في الانتخابات، هل سيناديه باسمه الحقيقي الذي لم يعرفه إلا القليل؟، الاسم الذي يخفيه عن الجميع، الاسم الذي قال لأصدقائه انه لن يقوله لفتاة إلا الفتاة التي سيقرر أن يبقى معها مدى الحياة، لتشعر أنها مميزة عن بقية الفتيات التي عرفهن، أم سيناديه كازانوفا، الاسم الذي قرر أن يعيش به حتى يجد الفتاة التي تنزع عنه ذلك القناع، قناع كازانوفا...

فرد ياسين على سؤاله قائلا وموجها نظره إلى المنظم:

- هنعرف دلوقتي.

خرج رجلا من غرفة إدلاء الصوت ومعه ورقة صغيرة مطوية، وأعطاها للمنظم والذي امسك بمكبر الصوت وقال:

- يشرف إدارة النادي الرياضي أن تعلن نتيجة انتخابات رئاسة شعبة الشباب، سأقوم بقول الأسماء من المراكز المنخفضة إلى المركز الأول...

ثم فتح الورقة ببطيء، وقال:

- المركز الرابع ... أدهم عبد المجيد.

فأغمض كازانوفا عينيه عاقدا حاجبيه وكأنه نسى أن يكتب اسمه المزيف... كازانوفا، فنظرت إلي ردة فعله تلك عندما تذكرت هي الأخرى انه لم يستطع ان يكتب اسمه المزيف الذي تعرفه به، فما سيكون اسمه الحقيقي!

فقال المنظم:

- المركز الثالث: حسن خليل...

فابتسم آدم ونظر إلى ياسين، الذي ظهرت على وجهه ملامح الذهول، بينما ظلت الفتاة تنظر إلى وجه كازانوفا الذي ظل مغلقا عينيه عاقدا حاجبيه...

فقال المنظم قاطعا لكل التوتر وجاعلا السفينة في منتصف البحر وبعيدة عن أي يابسة:

- المركز الثاني: محمود عبد الفتاح...

فتعالت صيحات الفتيات، ومعها بعض صيحات الفتية لأن صاحبة المركز الأول هي...

فقال المنظم:

- والمركز الأول: فرحة أحمد... مبروك يا فرحة.

فنظر الجميع إلى فرحة التي لم تعبأ بالفوز قدر ما كانت تهتم بمعرفة اسمه الحقيقي، ما اسمه؟ لقد ظل مغمض العينين طوال إعلان النتيجة ولم يظهر عليه شيء يدل على اسمه، وصمت أصدقاؤه فلم يفعلوا أي علامة تدل عليه...

فقاطعتها خطوات كازانوفا باتجاهها مبتسما ثم قال والابتسامة الجانبية تظهر الغمازة الصغيرة القابعة في طرف فمه:

- مبروك.

فابتسمت حرجا ثم نظرت إلى اسفلها، وأومأت برأسها ان نعم، ثم استدار كازانوفا وسار تجاه أصدقائه، ثم مال عليهم وغمز قائلا:

- عدت على خير...

منذ عامين

جلس ادم وياسين ومعهما كازانوفا على قهوة قديمة الطراز، ميزتها الوحيدة انها تطل على شارع السينما الذي يعتبر أشهر شارع في المدينة، والذي يمر به كل شخص إذا أراد التوجه إلى أي مكان...

رمق كازانوفا ساعته فوجدها الثانية عشر ليلا ، فنظر إلى ياسين حزينا ان اليوم قد انتهى ولم يصل لمراده ، فابتسم ياسين ثم قال موجها حديثه لكليهما:

- يا لا بينا نتمشى شوية وبعد كدة نروح البلايستيشن.

فرد كازانوفا:

- ماشي، إيه رأيك يا ادم؟

فرد آدم مستسلما لأي شيء يريداه:

- زي ما أنتم عايزين.

فمد كازانوفا يده ممسكا بهاتفه وعلبة سجائره الموضوعين على الطاولة التي أمامهم، فلقد اعتاد على ترك كل ما في جيبه على الطاولة ليجلس مرتاحا...

ثم وقفوا وأشار لهم كازانوفا لأقرب شارع يمينا، وقال:

- تعالوا يمين عشان عايز أجيب سجاير.

ففهما الاثنان رغبته في أن يراها، فلقد رأوا علبته ممتلئة منذ لحظات...

دخلوا الشارع الصغير الذي عمل خصيصا للمشاة ليبتعدوا عن زحمة الطريق الرئيسي، كانوا الثلاثة يسيرون بعرض الشارع، فهم يعشقون تلك المشية عندما تشير الساعة إلى آخر ساعات الليل، فأخرج كازانوفا سيجارة من علبته وأشعلها ثم رمق الطريق أمامه مخرجا دخانها فوجد أربعة فتيات يقفن أمام المحل الساكن في منتصف الطريق، فنظر كازانوفا الى أصدقائه وقال:

- أنا مش عارف أحدد مين اللى واقف بالظبط.

فابتسم الاثنان، ثم قال ياسين:

- نور.

فعقد كازانوفا حاجبيه متعصبا ثم قال:

- طيب يالا نرجع.

فتنحنح ادم وقال:

- انت مش عايز تجيب سجاير ولا ايه؟

فقال كازانوفا بنبرة جامدة:

- هنجيب من اى محل تانى.

فابتسم ادم بسمة جانبية ثم قال باقتضاب موجها حديثه إلى ياسين:

- روحوا أنتم أنا همشى من الشارع ده

نبرة آدم الباردة زادت من حدة غضب كازانوفا، فلقد قالها ادم بتلك النبرة ليقحم القلق في نفس كازانوفا، شعر وانه في منافسة على تلك الفتاة التي تدعى نور، فرد كازانوفا بدون تفكير:

- إنت مش قلت البنت دى محترمة وعمرها ما هتبصلك؟

فضحك آدم عندما نجحت خطته، ثم قال:

- أنا قلت تبصلك إنت مش أنا.

فأخرج كازانوفا زفيره غضبا، فلقد أشعله ادم بكلمات بسيطة، فرد كازانوفا بعدما ارتفعت نبرة صوته:

- يعنى انت عايز تفهمنى ايه بالظبط؟
- اتعصبت ليه؟

فوقفوا الثلاثة في منتصف الطريق، وظل ادم وكازانوفا يرمقان بعضهما البعض، وعينا كازانوفا تبثان شرا ، وعينا الآخر تنظران إلى كازانوفا بحزم ، وعينا ياسين تتابعان مايدور عن كثب، فقطع كازانوفا الصمت قائلا:

- انت عايز ايه يا ادم؟
- عايزك تفوق...

ثم استطرد قائلا:

- عايزك تنسى فرحة وتنسى جرحها ليك، بص حواليك في مليون واحدة أحسن منها...

ثم أردف قائلا بعدما شعر بقابليه كازانوفا ليسمع الحديث:

- ايه يعنى لما بنت أصغر منك تأكلك البليلة وتطلع بتحب واحد ومصحباه من وراك؟

فرمقه كازانوفا بعينين كالصقر، أراد أن يفهم ما مراده من هذا الحديث في ذلك الوقت، خاصة وان نور على بعد خطوتين، ماذا تريد يا ادم؟، فيما تفكر؟ ...

فأكمل ادم لينهي الحديث...

- كلنا اتخدعنا، كلنا عيطنا في أوضتنا بليل، كلنا تانى يوم بندور على الحياة عشان نكمل، لو كل واحد وقف حياته على شخص خاين مش هيعيش، إنت لسه صغير يا كازانوفا احمد ربنا انها جات دلوقتي، اتعلم وبص حواليك ...

فقال ياسين مازحا :

- اسمع كلام أبوك...

ابتسم الثلاثة، ثم أعادت نظرة ادم كازانوفا للتفكير فيما قاله، تلك الجملة التي قالها بنبرة هادئة، تحمل مزيج من النضج والحكمة، لم يعهد تلك النبرة من آدم المرح الذي لم يره أحد جادا، فابتسم كازانوفا ثم نظر إلى ياسين المبتسم من ذلك الحديث، ثم وجه كازانوفا نظره إلى المكان الذي كانت تقف به نور وصديقاتها فوجدهن قد رحلن، فأخرج سبة معترضا ثم قال:

- جيت أبص حواليا لقيت الشارع فاضي...

فنظر آدم وياسين إلى الشارع، ليجدوه فارغا تماما، فيضحك الثلاثة ضحكا هستيريا، ثم قال ياسين ضاحكا:

- إنت اللى حظك كده بقي...
- ابعتلها رسالة.

قالها آدم بجديه قالبا المزاح، فرمقه كازانوفا منبهرا من الفكرة التي لم تخطر على باله، فقال:

- بس هترد؟
- مضمنش، بس جرب... ردت يبقى كويس مردتش هتفضل زي ما انت ومش هتكون اخر واحدة في الكون يعنى.

فابتسم كازانوفا ثم أخرج هاتفه وفتح موقع "الفيس بوك" وضغط على مستطيل البحث لتخرج قائمة قد وجد بها اسمان، أحدهما " فرحة أحمد " والآخر " يسرا حسن "، ثم كتب هو الاسم الثالث " نور طارق "، فجلت صفحتها، ثم ضغط بجانب اسمها على علامة الرسالة، وكتب راسلا " نور! " ثم ضغط على زر إغلاق الهاتف وقال:

- اما نشوف...

****

من دفتر الواقع

ذلك البرود الذي يسير في وريده وتلك الحرارة التي تعتري جسده، إنها رائعة الخمر الذي شربه، عندما يمر الوقت يزداد الشارب ثمالة، لا تهزه مشاعر أيا كانت، لا بكاء بعد الآن انه آن الفرح، ولكنه فرح مؤقت...

أفاق من شروده بعدما رن هاتفه فتبعثرت سحابات الذكريات من امام عينيه، فنظر إلى الهاتف فوجد صورة ياسين الذى يتصل به، فلقد اعتاد أن يضع لكل رقم في هاتفه صورة ليعلم من يتصل به بنظرة دون أن يمسك بالهاتف، ضغط على رفض المكالمة، ثم أعاد نظره إلى الطريق، ذلك الطريق الذي تمرق عواميد الإنارة على جانبيه كأنها سهل من الضوء يسير بجانبه ليطمئنه ان في النهاية الضوء الأكبر، ولكنه وفى هذه الحالة يفكر كالطفل الصغير، تلك العواميد تذكره ببعض من ذكريات الطفولة فركز معها ونسي واقعه، ولكن الخمر أثمل جسدا مهزوما ونفسا ذاقت الحزن، فيزيد الحزن...

ركز نظره إلى الطريق أسفل السيارة الذي يفترش كالبحر امامه، يركز في تفاصيله الصغيرة، حتى إنه يفكر فيما صنع...

أخذ يلقي نظره إلى كل شيء أمامه ليهرب من الذكريات التي أثقلته، ولكنه وبعد كل شيء قرر أن يكمل...

أن يدعها تنزل عن عاتقه... أن يتركها تتحكم به لعلها تكل نفسه البائسة وترحل باحثة عن غيره...

شعر بالاختناق، فكبس دواسة البنزين بقوة، ليهدر صوت السيارة وتركض بأقصى سرعتها، فينظر إلى مؤشر السرعة مبتسما، فلقد تجاوز المائة والخمسين، فتذكر مقولة ياسين عندما أتي بالسيارة لأول مرة...

" مش هتعدى بيها المية وخمسين عشان أنت قلبك ضعيف..."

فأغمض عينيه من كثرة الضحك بعدما سقطت منها بعض من الدموع، ليشعر باهتزاز المقود بين يديه، فيفتح عينيه سريعا بعدما دق قلبه خوفا، فلم يعتد على هذه السرعة مطلقا، وسرعان ما ابتسم بعد قلق وضغط بقوة أكثر على دواسة البنزين ليرتفع مؤشر السرعة إلى المائة والسبعين، ويقتحم الهواء السيارة بقوة وكأنه سمع نداءه فلم يتأخر، وحينها ابتسم ابتسامة رضا عندما انتعش جسده...

وبعد لحظات رن هاتفه للمرة الثانية، وفى تلك المرة كان آدم من يتصل، فأمسك كازانوفا الهاتف ثم ضغط علي زر الرفض وألقاه بقوة على الكرسي بجانبه ليرتطم به ثم في الباب ويقع أسفل السيارة...

اشتدت أعصابه عندما زادت حدة غضبه، لماذا؟! ... عندما أتناسى تذكروني؟ ما شأنكم بحياتي؟، تركتكم تحتفلون بها وبه وذهبت لأجد السعادة وحيدا، فلماذا تحدثوني؟ ...

ثم بكي...

عندما تذكر انه أصبح وحيدا، أو لأنه وفى تلك اللحظة التي احتاج فيها من يحتضنه لم يجد، فعادت سحابات الذكريات تغطي بصره، وترحل بوعيه إلى رحلة من الشرود الذي يعزف موسيقاه الحزينة عما مضي، ويقف هو مصفقا للمايسترو مبتسما فرحا وباكيا أيضا! ...

من دفتر الذكري

منذ خمسة أعوام...

" في إيه؟ ... بتعيطي ليه؟ "

قالها قلقا من مظهرها الكئيب، فلم تتزين قبل نزولها ودموعها كثيفة على وجنتيها وتتعرق من شدة البكاء، تجاهلت كلماته ، وأكملت بكاءها غير المفهوم سببه، لماذا تتصل به في مثل هذه الساعة قبل امتحانات نهاية العام بأسبوع ؟! وتطلب منه النزول في تلك الساعة المتأخرة خاصة وأن الجو ممطر وبارد، هل مات أبوها مثلا ؟! لا فلو مات لكانت الآن في البيت تنتظر طلوع الشمس باكية ، ولو كانت أمها لقتلت نفسها... إذا ما بها...

لان قلبه عندما وجدها تزداد حزنا عندما تتذكر شيء ما، ولكنه لا يعرفه، أخذ يتفحص ملامحها عن قرب من خلف الدموع ، فيظهر جمالها رغم عنها، ففي وقت الحزن يظهر الإنسان على طبيعته حتى في جمال ملامحه ، فيظهر الوجه الملائكي ليسرا ، يعلم أنهما معا منذ عام وأكثر ولكنه لم يلاحظ ملائكيتها ورقتها كما في ذلك الآن...

" فيكي إيه يا بنتي؟ "

لاحظ أنه بعد أن تكلم زاد بكاؤها، تلك الفتاة تخفي شيئا ولا يدري ما هو... شعر أن صوتها بح من كثرة البكاء، فمد يده وربت على كتفها وقال بصوت بارد حاني:

- ممكن بقي تهدي وتفهميني في إيه؟

فوقفت وألقت بجسدها في حضنه ليحتويها ، فاهتز جسده رغم عنه ، فهي المرة الأولى له التي يعانق فتاة، وهي المرة الأولى التي يعانق بها يسرا...

ظل رامقا الأرض من خلفها وهي بين ضلوعه ، شعر بها تملأ كيانه، وشعر ولأول مرة أنه يحتويها وهي تحتويه، كم أعشقك أيتها الفتاة ! ؟ ، كم أعشق تلك الصغيرة التي عندما واجهتها مصيبة جاءت لتبحث عن الحل في أحضاني...

كسرت الصمت وقالت والغصة التي في حلقها تكاد تمنع صوتها من الخروج:

- في حاجة أنا عايزة أحكيها لك.

فمد يده مبتسما ثم امسك بأصبعيه الغمازة الصغيرة القابعة في طرف فمها واقترب منها ببطيء ثم قبلها...

حاولت الابتعاد للحظة، ولكن حرارته جعلتها تقاوم تلك المقاومة، ولكن سرعان ما بكت فابعد وجهه عنها، ثم قالت:

- أنا بحبك يا كازانوفا.

فوضع سبابته فوق فمها ليجعلها تكف عن الحديث، ثم قال:

- ممكن تهدي الأول وبعد كده تقولي في ايه؟

فأومأت برأسها مبتسمة وقالت:

- وبعد اللى حصل دا أنا مش هههدا ازاى..؟.

فابتسم، فابتسمت، ثم قالت:

- ممكن اللى أنا هحكيه يضايقك بس بما أننا وصلنا لكل دا لازم تبقي عارف عني كل حاجة...

فقال:

- طيب ما انا عارف عنك كل حاجة.

فقالت في لين:

- ممكن تسمع كلامي كله وبعد كده ترد في الآخر؟

فأشار لها بيده لتبدأ بالحديث، فتنهدت لتقلل من توترها بعدما شعرت وان ما فعله سيزيد من حدة ردة فعله وقالت:

- من سنتين يعني من قبل ما أعرفك بسنة، كنت بحب واحد واتصاحبنا لمدة شهرين كان اسمه...

فقاطعها قائلا بنبرته الباردة:

- حسين... اسمه حسين، وصاحبك عشان يتعرف على صحبتك وبعد كده بعد عنك وبعد كدة قررتي تصاحبي صاحبة عشان تضايقيه وطلع صاحبه راجل ولعب بيكي شهرين وبعد...

ثم صمت بعدما فاجأها بتلك المعلومات وتلك الطريقة في الحديث وكأنه يخبرها بأنه يعلم كل شيء ويسامح، فأستدرك قائلا:

- كل دا انا عارفه عنك من قبل ما أتكلم معاكي مع انك خبيتي، ورضيت... هو دا بقي اللى انتي بتعيطي بسببه؟

فقالت:

- لا في حاجة كمان.

فعقد حاجبيه متسائلا، فما قاله منذ قليل هو كل ما يعلمه عنها، تلك الفتاة أخفت عليه ما هو كبير ولكنه سامح لأنه يحبها، ولكن شيء بداخله جعل القلق يعتريه، فقاطعت تفكيره قائله:

- آسر...

رمقها بغضب، فجعلتها تلك النظرة تحني رأسها إلى الأرض خائفة، فأكملت بصوت مرتعب قائلة:

- في عيد ميلادي يعنى من أسبوعين اتصلت بيا من موبايل آسر، ويوميها بليل اتصل بيا ورديت عشان كنت فكراه أنت، بس طلع هو...

نظراته الغاضبة جعلتها تصمت خوفا من ردة فعله...

فقال لها بنبرته الباردة التي لم تتغير:

- كملي.

فتنهدت وقالت:

- قال كل سنة وأنتي طيبة، يعني يوم عيد ميلادك ومينفعش أعديه من غير ما أقولك...

فصمتت للحظات، ثم قالت بصوت خفيض:

- فقلت وأنت طيب يا آسر، أنت عيد ميلادك أمتى عشان أردهالك؟ ...

فابتسم كازانوفا ونظر إلى البحر من خلفهما، فأكملت ناظرة إليه:

- قال...

فقاطعها صائحا وكاسرا للصمت الذي يحتل الشارع، صاح بأقصى قوته، ليداري على صوت ارتطام الموج بالصخر من خلفهما، وينظر إليها والدموع تكاد تسقط من عينيه:

- لخصي كلامك...

فعقدت حاجبيها حزنا وخوفا، فشعرت مع ارتطام الهواء القوى بها كأنه غضبه الثائر يقتلها، فقالت بعدما أصابتها رعشة خفيفة:

- اتكلمنا أسبوعين، واتفقنا أن إحنا نفضل صحاب ومنحكيش ليك على حاجة... لغاية من ساعتين لما حسيت ان احنا بنخدعك وحاولت ابعد فهددني إنك صاحبه وأخوه وهتصدقه هو ومش هتصدقني أنا...

فقاطعها قائلا والابتسامة الباردة التي تقطع قلبه من الداخل على وجهه:

- فقررتي تتصلي بيا وتنزليني في الوقت دا وتمثلي عليا عشان أتعاطف معاكي...

فحاولت أن تقاطعه ولكنه صاح قائلا:

- صاحبي عمره ما يعمل كده ، إنتي كدابة...

فخرجت من ثوب الضعيفة الى ثوب الثائرة، والتي شعرت بأن زمام الأمر يضيع من بين يديها فقررت أن تسقط كل شيء...

فقالت:

- ثواني...

تفاجئ من تغير ملامح وجهها إلي الجفاء الذي كانت تخفيه، فأخرجت هاتفها، ثم فتحته وشغلت بعض من المكالمات بينها وبين آسر، الذي لم يعلم أنها فعلتها...

ليسمع كازانوفا...

" بس انتي يا يسرا طيبة ودمك خفيف ومتستحقيش واحد زى كازانوفا يصاحبك..."

ثم ضغطت على زر إغلاق، وبعد لحظات شغلت التسجيل الذي يليه...

"كازانوفا أناني ومش بيحب غير نفسه، عشان كده هو مكروه في الشلة... أنا مش عارف إحنا مصاحبينه ليه الصراحة... "

ثم قالت بعدما شعرت وأن قلب كازانوفا قد شارف علي الانهيار، لتعلن سقوطه، ولتعلن سقوط كل شيء:

- وهو دا بقي صاحبك اللي عمره ما يعملها...

ثم صمتت بعدما أنهته...

وظل كازانوفا شاردا فيما سمع...

فقالت بصوت خفيض:

- أنا عارفة إنك مصدوم في حبيبتك وصاحبك، وعارفة إن بعد اللى عرفته دا عمرنا ما هنرجع بس أنا حبيت أريح ضميري... إنت طيب ومتستهلش كل اللي حصل فيك دا...

ثم اقتربت منه وقبلت جبهته وقالت:

- سلام يا كازانوفا...

ثم استدارت وسارت مبتعدة عنه، وظل شاردا لا يرمش له جفن، فالحزن الذي احتل قلبه لا ينطوي تحت إحساس...

شعر وأن جسده مخدر لا يستطيع الحراك، وشيء واحد ما جال في عقله...

****

منذ عامين ونصف العام...

جلسا أمام بعضهما في ذلك الكافية الذي اعتادا المكوث فيه، جلسا على الطاولة المطلة على الشارع ليشاهدا جمال الشمس وقت غروبها، عشقا ذلك المكان وأرادا لو يمكثان فيه معا طوال حياتهما...

كازانوفا، جرح مرة في صغرة وكره الحب، وقرر أن ينتقم منهن، فتقرب من عشرات وتركهن باكيات عليه، وعندما اقترب من تلك التي تجلس أمامه... شعر وأنها مختلفة عنهن، فتاة صغيرة تملك تلك الروح من الغزل والمرح، فتمضي الساعات ولا يمل منها...

كان يثبت نظره عليها ويراقبها وهي تتحدث وعندما تصاب بالإحراج وتطلب منه أن يداري عيناه، كان يبتسم ويطلب منها أن تكمل...

فتعودت أن تتكلم فقط أمام عينيه...

" انت عارف انهاردة ايه؟ "

قالتها متعجبة من جلوسه الطبيعي في مثل هذا اليوم، فقال:

- نهائي دوري أبطال أوروبا؟

فعقدت حاجبيها غضبا، ثم زفرت وقالت:

- لا والله...

ثم سريعا ما وقفت وأخذت تجمع أشياءها التي اعتادت تركها دوما على الطاولة مثلما يفعل، فأمسك بيدها وقال:

- مينفعش تمشي وأنا قاعد يا فرحة.

فنظرت له غاضبه، ثم أخرجت زفيرها وجلست مكانها، فقال:

- ثواني...

ثم أمسك هاتفه، وفتح برنامج "الواتس آب" وكتب رسالة إلى آدم، ثم وضعه مكانه على الطاولة ، وأمسكها من يدها وأشار لها ان تنظر إلي السماء...

وفجأة خرج سيل ضوء من الأرض ليحلق في السماء ويصدر صوت الفرقعة ويفترش في السماء علي هيئه ضوء ملون يختفي بعد لحظات، ومن بعده حلقت عشرات من الصواريخ الاحتفالية في السماء، فنظر لها مبتسما بسمة جانبية، فدمعت عينيها فرحا من المفاجأة ، وبعد لحظات مد يده إلى جيب سترته وأخرج منها خاتما فضيا لامعا ومرصعا ببعض الذهب في أطرافه، والبسها إياه في إصبعها...

ثم نظر لها وقد احمرت وجنتاها، والضحكة الواسعة تزين وجهها، والفرحة تلمع في عينيها...

ثم اقترب منها وقبل يدها في لين، لتسقط من عينيها دمعة فرحة لم تعشها مطلقا، فلقد عشقت المفاجآت ولكن ليس مثل تلك، تتزين السماء بألوان الصواريخ الفرحة وكأنها وجدت من أجل فتاة واحدة... من أجلها هي فقط...

شعرت للحظات أن صانع السعادة في عمرها، يجلس أمامها ويقبل يدها، ويرسم تفاصيل فرحتها بيديه، من انت يا كازانوفا؟ هل أنت ساحر تسحرني ؟، أم إنك بحر كبير ثائر يثني علي ويهدأ عشقا بي...

ظلت مرتبكة من تلك المفاجأة التي لم تكن تتوقعها، فالمنطق يقول انه سيأتي لها بهدية صغيرة تعيش لفترة ثم تدمر ، ولكنه فاجأها بمشاعر تحلم بها أية فتاة... الاهتمام...

قالت بصوتها المبحوح:

- أنت مجنون يا كازانوفا...

فقال بصوته البارد:

- مجنون بيكي...
- أنا مستهلش كل دا...
- ودا أقل حاجة أقدر أقدمهالك...
- أنا بحبك ...
- وأنا كمان بحبك...

ظلت الفرحة في عينيها، وظل كازانوفا يراقبها بثبات، فقد اعتاد على عدم إظهار مشاعره، فإن لم يتعلم من الضربة الاولي فهو يستحق الثانية...

قاطعت فرحتهما قائلة :

- ممكن أطلب طلب صغير؟

- اتفضلي.
- أنا عايزة أعرف اسمك الحقيقي...

فضحك كازانوفا وقال:

- أنا نفسي نسيته.

فابتسمت رغما عنها ثم قالت:

- أنت اسمك محمود ولا أدهم ولا حسن؟

فرد ضاحكا:

- وليه لازم يبقي من التلاتة؟

فردت بجديه:

- فاكر من سنة ونص؟ ... لما كنا في انتخابات النادي ونادوا علي أسماء المراكز كان التلات أسماء دول هما أسماء الولاد في الانتخابات...

فصمت كازانوفا لبرهة ثم قال:

- فرحة ، أنا مش هقدر أقولك اسمي.

فارتفعت نبرة صوتها رغم عنها وهي تقول:

- يعني بعد سنة كاملة ومش عايز تقولي اسمك؟

فرد بهدوء بعدما ارتشف قليلا من الشاي الذي تذكر انه موضوع على الطاولة منذ جلوسهما:

- زى ما قلتي، بقالنا سنة ليه جايه تسألي دلوقتي؟

برودة الساكن جعلها تشتعل غيظا، فقالت دون ذرة تفكير:

- يعني كلام آدم صح...

رمقها بغضب مثلما فعلها منذ عامين ونصف...

فأكملت ونبرتها تهدئ بعدما شعرت أنها أفسدت الأمر:

- كلمته من أسبوع أسأله على اسمك الحقيقي عشان كنت عايزة أعرفه، وقلت أكيد صحبك مش هيخبي...

نظراته لها جعلتها ترتبك، فلم تعتد تلك النظرة الغاضبة من كازانوفا المبتسم، فأكملت:

- وقال إنه مينفعش يقول غير لما أنت تقوله الأول... ولما سألته ليه مش عايز يقول... قالي إن هو واخد عهد على نفسه ميقولش غير للبنت اللى هيتجوزها...

ثم أكملت محاولة أن تزين ما حدث:

- وقال انه هيقولك على طول لأنه مش بيخبي حاجة عليك وأنا اللى قلتله لا عشان أقولك أنا انهاردة...

فخرج عن جموده وقال:

- جبتي رقمه منين؟

تعجبت من سؤاله فجاوبت دون تفكير:

- انت اتصلت بيا من عنده قبل كدة وقلتلي إن أنا امسح الرقم ومتصلش بيه...

ثم قالت مستدركة:

- وإنك هتمسح رقمي من عنده كمان...

ابتسم ببرود وقال:

- انتي عارفة أنا وآسر مش صحاب ليه بعد ما كنا أقرب اتنين لبعض في الشلة؟ وليه أنا سبت يسرا؟

فأومأت برأسها أن لا، فقال:

- عشان اتكلم مع أول بنت أنا حبتها من ورايا وخبي عليا... اللي هي يسرا.

أرادت أن تتحدث ولكنها التزمت الصمت بعدما شعرت وأنها ذكرته بذكريات قد تناساها ، فقال بعدما وجد عينيها قد دمعت :

- بس متخافيش أنا هسامحك وهسامحه، عارفة ليه؟ ... عشان دي أول مرة تغلطي بس يا فرحة...

ثم انتبهت لحديثة بعدما أشار لها بسبابته محذرا:

- غلطة كمان ويبقي اللى بنا انتهي... أنا اكتر حاجة بكرهها الكدب والنفاق، انا عمري ما نافقت حد وعمري ما كدبت... فمينفعش تكدبي إنتي عليا...

فابتسم وقال بعدما عاد إلي هدوئه المعتاد:

- بس طلعتي حلوة أوي لما بتتفاجئي

فابتسمت من خلف الدموع، فأمسك بيدها في هدوء وقال:

- نغير الموضوع بقي... ولا كأن في حاجة حصلت...

لم يستطع أن يقول لها اسمه الحقيقي، فهو الشيء الذي سيمنحه لحبيبته التي ستبقي معه طوال حياته ، حبيبته التي لم تخدش ثقتها في قلبه يوما ، كان يريد أن يهديها إياه في ذلك اليوم ولكن هناك شيء بداخله منعه من البوح بعدما أخفت، فجرحه القديم جعله عديم الثقة فيمن حوله...

****

منذ عام ونصف...

" ردت على رسالتك؟ "

قالها آدم عندما كان يقلب كوب الشاي الذي أمامه وينظر إلى كازانوفا الممسك بهاتفه ويقرأ أخبار الرياضة مال ، فرد كازانوفا قائلا:

- وصلت على ال "others "...

فنظر له آدم متسائلا، فاستدرك كازانوفا قائلا:

- لما تبعت رسالة لحد على الفيس بوك ويكون عنده عدد رسايل كتير مش مقروءه أو إن مفيش أصدقاء مشتركين بينكم...

فدلت ملامح وجه آدم على عدم فهمه، فاستطرد كازانوفا حديثه قائلا:

- بمعني انها عشان تقرأ الرسالة لازم تفتح من اللاب توب...

فقال ادم:

- طيب وهنعمل ايه؟

فنظر كازانوفا الى المارة في الشارع الذي تطل عليه القهوة، وأخذ يفكر في حل، فقطع آدم حبل أفكاره قائلا:

- لما تشوفها في الشارع قولها افتحي ال "others " واكيد هتسأل وتعرف بعدها...

فضحك كازانوفا مستهزئا بحديثه، فأردف آدم:

- قدامك حل غير كدة؟

من دفتر الواقع

أخذ يراقب فرامل اليد بابتسامة شخص قد مات داخله منذ أمد بعيد، شخص قد تراكمت عليه أحزانه وأثقلته الوحدة بما هو أبعد من الدموع، فجعلته شخصا جاهزا للموت في أية لحظة، نظر إلى ساعته فوجدها الثالثة بعد منتصف الليل بعدما شعر بالبرد قليلا حينما تراكمت النسمات الباردة في الهواء، فقرر أن يتوقف، لا عن السير بل عن الركود الذي باتت به السيارة ، فمنذ ربع ساعة وهي تركض بسرعة تفوق المائة والستين كيلو مترا في الساعة ، يا له من ملل يشعر به، وضع يده على فرامل اليد، واخذ ينظر إلى عرض الطريق أمامه بتلك الابتسامة الباردة، وبعد لحظات وعندما اقتربت السيارة من ميل بسيط في الطريق، رفع فرامل اليد بقوة ولف المقود قليلا ناحية اليسار، لتصدر صريرا عاليا سمعته كل البيوت التي تطل على البحر في ذلك الحين، ليتحرك وجه السيارة الأمامي ناحية اليسار، وفجأة تلتف عدة لفات في أقل من ثوان معدودة ، ويظل هو مبتسما مغمض العينين وخاصة عندما فقد تحكمه كليا بها، فترتطم بجانبها الأيمن الخلفي بالرصيف، ومع ردة فعل الارتطام اضطر ان ينزل فرامل اليد ويكبس الفرامل لتتوقف السيارة بجانب الرصيف بعدما سقط " اكصدامها " خلف السيارة بعدة أمتار...

ورغم ذلك القلق الذي انتابه للحظات ، تعالت ضحكته الساخرة مما حدث، وبعد لحظات فتح باب سيارته ونزل ثم سار باتجاهه وبعد أن وصل إليه حمله من على الأرض وعاد في بطيء ثم ألقاه على الأريكة، وعاد إلى كرسي السائق ثم أدار السيارة واخذ يكبس البنزين بقوة كعادته...

قطع تلذذه القاتل مكالمة على هاتفه ، فأمسك به من أسفل السيارة، فوجد صورتها وهي تقف مبتسمه ممسكة ببعض من الزهور، ذلك الوجه الملائكي الذي عشقه، تلك الملامح الدقيقة التي ذاب فيها عندما امتلكها، تلك الروح التي تبسم فرحة وظفر وتوعده بمستقبل وردي كما تمني... إنها نور أو كما سماها، حبل النجاة من ذلك المستنقع الذي بات فيه ، اليد المنقذة التي ستحمل عنه قناع كازانوفا الذي كرهه بشدة، وكيف لا وهو الذي أدي به إلى تلك اللحظة التي يعيش فيها غائبا عن الوعي، ألغي تلك الأفكار التي استحوذت علي فكره، وضغط علي زر الرد، ثم قال محاولا تمالك عقله الغائب منذ ساعة:

- ألو...

قالها بنبرته الحزينة الباردة والتي لا يعلمها أحد إلاها، فقالت بصوتها الأنثوي الجذاب ورقتها الحانية التي تنسيك هم قد سكن قلبك:

- إنت فين يا كازانوفا؟

فصمت كازانوفا محاولا أن يملك زمام لسانه، لترد قائلة:

- أنا عارفة إن إنت متضايق، أنا مش بكلمك عشان أقولك مجتش ليه، انا بس بكلمك عشان أطمن عليك لما عرفت إنك مش بترد على أصحابك...

فقال دون تفكير:

- بتكلميني قدامه ولا من وراه؟

فارتبكت قليلا من سؤاله، ثم تنهدت وقالت:

- ملوش لازمة الكلام دا دلوقتي يا كازانوفا.

فصاح كازانوفا غاضبا:

- أمال إمته وقته؟ ... انتي قولتيلي علي خطوبتك فجأة وقطعتي كل الاتصالات بينا من غير حتي ما تتكلمي معايا من غير حتي ما تعرفي شعوري...

ثم خفض صوته وقال:

- من غير حتى ما أقولك مبروك...

نبرته الهادئة الضعيفة، حركت بداخلها وتر قد حاولت أن تتناساه لتكمل حياتها، فلقد منعت كل الاتصالات بينهما قبل خطوبتها لالا تتذكر ذلك الوتر الحزين بداخلها...

فقالت بصوت خفيض لين لم يتوقعه:

- أنت فين طيب يا كازانوفا؟

فابتسم وقال:

- أنا نفسي مش عارف.

ثم ضحك بسخرية على ما قاله دون قصد، فشعرت وأنه ليس في وعيه ، فسألته غاضبة:

- أنت شارب؟

فقال ضاحكا:

- أيوا ...

فردت بحزم قائلة:

- عشان كده أنا بعدت عنك... عارف ليه أنا استسلمت زى ما أنت فاكرني؟ ... عشان انا حبيت واحد فاشل وضعيف... واحد كل ما تواجهه مشكلة يجري يشرب ويغيب عن الواقع... وانا مقدرش أعيش مع واحد غايب...

صمت متعجبا من نبرتها الحازمة والتي لم يعتدها منها بالذات، فأكملت:

- فاكر لما كلمتك ولقيتك شارب وبتضحك وبتقلي أنا سقطت في الكلية وهتأخر سنة ؟ ... طبعا فاكر ... طيب فاكر إحساسي كان إيه وقتها وأنت كأنك بتقولي شوفي غيري، أنا ضعيف ومش متمسك بيكي...

فصمتت لوهلة عندما شعرت أنها ستبكي ولكنها لم تعبأ، ثم أكملت بتلك النبرة التي زاد عليها بحة صوتها عند بداية البكاء:

- عمرك ما هتفتكر إحساسي عشان كنت غايب...

ثم استطردت قائلة:

- إذا كنت غايب أحب أقولك كلمة هتحس بمعناها لما تفوق... انهارده خطوبتي يا كازانوفا انهارده أنا ملك واحد غيرك...

ثم صمتت بعدما شعرت أنها أنهت كل شيء، ليرد هو ببروده الذي اعتاد عليه منذ سنوات:

- مبروك يا نور...

ثم أغلق المكالمة، وكبس الفرامل لتتوقف السيارة بعد عدة أمتار زحفتها ، ثم وضع رأسه على المقود واخذ يبكي بحرقة...

وبعد دقائق حرك مغير السرعة، وضغط على دواسة البنزين بأقصى قوته، لتشتعل السيارة غيظا من داخلها، وكأنها تعبر عن الصرخة التي يكتمها... تلك الشحنات التى يريد أن يخرجها قبل أن تقضي عليه... فأخذ يرمق الطريق أمامه الذي تأكله السيارة بسرعتها أسرع لحظة إثر لحظة دون أن يرمش له جفن، وهو يتذكر ما مضي والغضب يكاد يخرج من عينيه ليحطم زجاج السيارة...

من دفتر الذكري

منذ خمسة أعوام...

نزل آسر مفزوعا من بيته بزيه المنزلي غير المنمق، ليجد كازانوفا يستند على سيارة قد صفت أمام المنزل ، فابتسم له آسر متوترا من نظرته الغاضبة ، ثم قال :

- في إيه يا صحبي عايزني في إيه في الوقت دا ؟

فابتسم كازانوفا ابتسامة جذلة غريبة وقال مستهزئا:

- صاحبك؟!

فابتسم آسر رغم عنه وقال بصوت مرتعب:

- أمال أقول لك ايه يعني؟

وفجأة اقترب منه كازانوفا في خطوات سريعة نظرا لطول قامته، وامسك بملابس آسر ودفعه للخلف ليرتطم بقوة في باب العمارة الحديدي من خلفه،فابتسم آسر متأوها وقال :

- يبقي حكيت لك...

ثم استدرك:

- ينفع تضرب صاحبك عشان واحدة؟

فنظر كازانوفا إلي عينيه المرتعشتين، وبعد لحظات أبعد يده عنه وقال محاولا العودة لهدوئه المتزن:

- احكي إلي حصل...

فعدل آسر ملابسه مبتسما ، ثم مد يده إلي جيب بنطاله وأخرج علبة سجائره، ثم أعطي واحدة إلي كازانوفا الذي أخذها ثم أشعل آسر لكليهما ونفث دخانها في الهواء وهو يفكر كيف يبدأ، وبعد ثوان قال:

- من يوم ما قلت لنا إنك بتحبها وأنا شاكك فيها...

فنظر له كازانوفا باحتقار ، فأكمل آسر :

- واتأكدت لما قلت لنا إنك قلت لها بحبك وقالت لك بحبك على طول من غير حتى ذرة تفكير... فحبيت أثبت لك وأثبت لنفسي إنها متستهلكش...

فابتسم كازانوفا غير مصدق لتلك الترهات ، فأكمل آسر:

- انت صاحبي وأخويا وأعرفك من سنين، واللي ليك عندي إن أنا أحمي ضهرك وأرشدك للصح...

فصفق له كازانوفا مبتسما يكبح غضبه، ثم قال:

- بس إزاي واحد باللسان دا يقع وواحدة زي دي تسجله ؟ وكمان يكون مش عارف إنها بتسجله...

فصمت آسر شاردا بعدما سمع تلك الكلمات، فلم يتوقع تلك الخطوة من هذه الفتاة... فأكمل كازانوفا:

- بقي أنا أناني وأنتم مش عارفين مصاحبني إزاي؟!

ثم استدرك قائلا:

- وأنا مستهلهاش...

ظل آسر ناظرا إلي الأرض خائفا من تلاقي عينيهما،وصمت كازانوفا منتظرا أية كلمة تقلل الحزن ولتجعله يرأف به في الحكم ، ولكن خفايا الأنفس قد ظهرت ، ولا شيء قد يسدل عنها الستار أو يطويها...

- أنا آسف...

فابتسم كازانوفا وقال :

- إلي هيجنني حاجة واحدة بس ... إزاي كنت بتقابلني وبنقعد وبنضحك وانت بتكدب عليا؟ ... للدرجة دي أنت منافق؟

فأكمل كازانوفا بنبرة تدل على ضعف قلبه:

- أنا عمري غلط في حقك يا بني ، أو قربت لحاجة ملكك؟ ... طيب انا طفل صغير مش عارف هي بتكدب ولا لا؟ ... طيب إفرض إن أنا عيل صغير، بس بحبها يا أخي...

ثم صمت بعدما سقطت دمعة على وجنتيه رغم عنه، فمسحها سريعا وقال مشمئزا:

- اللي حصل دا ميتحكيش لحد... دا سر بيني وبينك... وسط الناس أنا وإنت بنتكلم إنما بيني وبينك منعرفش بعض... وياريت مشفش وشك فترة...

ثم ألقى كازانوفا السيجارة أسفل قدمه وضغط عليها بقوة وقال:

- يا صاحبي...

ثم استدار وسار كازانوفا، تاركا آسر خلفه ينظر إليه حزينا مما حدث، ولكن ما مدي الحزن الذي يمكن أن يجعله يسامحك! ...

****

منذ عامين وبضعة أشهر...

جلس على القهوة القديمة أمام الجامعة، وأخذ يجرع عصيرا باردا ليقلل من حرارة جسده الذي اشتعل من حرارة الشمس التي سار تحتها بعد خروجه من لجنة الامتحان...

اخرج هاتفه من جيبه ووضعه على الطاولة كما اعتاد، ثم اخذ ينظر اليه مترقبا مكالمتها له المعتادة بعد كل امتحان...

ولم يلبث حتى رن الهاتف، ولكنها لم تكن من توقعها، لقد كانت يسرا حسن...

عقد حاجبيه متعجبا، ثم ضغط على زر رد وقال ببرود:

- نعم؟

فقالت بصوتها الطفولي بعض الشيء:

- أنا اسفة إني بتصل بيك دلوقتي...

فاخرج صوت همهمة من فمه لتتابع، فأكملت قائلة:

- عملت إيه في الامتحان؟

أخرج زفيره غاضبا ، فأكملت مرتبكة :

- يبقي محلتش كويس ، هندسة أصلا صعبة ، بس إنت برضة شاطر وبتنجح مسطرة كل سنة...

فابتسم ببرود وقال:

- ما شاء الله...

فصاحت بعدما فقدت الأمل في لين قلبه:

- أنا آسفة إني بتصل بيك، بس حبيت اتأكد من إن انت اللي قرأت الرسالة اللى بعتهالك ولا هي...

فخرج من ثوب صمته وقال منفعلا :

- هي مين ؟ ورسالة ايه ؟

فتنهدت وقالت:

- أنا بعتلك رسالة امبارح على الفيس بوك وبعد ساعة أو اتنين لقيت علامة قرأءة الرسالة ومسمعتش إنك سبتها لغاية دلوقتي فا قلت اتأكد عشان ممكن تكون مديها الباسورد بتاعك ولا حاجة...

فابتسم لينرفزها وقال:

- دا انتي متابعانا بقي؟

فقالت دون أن ترد على سؤاله :

- المهم عشان مطولش عليك ، وعشان فعلا شكلها هي اللى قرأت الرسالة... الرسالة كانت بتقول...

ثم تنهدت وقالت مستدركة:

- كازانوفا أنا ببعتلك الرسالة دي عشان أفتح عينك على حاجات إنت مش شايفها، أنا عارفة إنك مش بتثق فيا وكرهتني بس أنا لازم أعرفك عشان أنا لسه بحبك، إنت بقالك أسبوعين مشغول في امتحاناتك وبعيد عن فرحة ومش مهتم بيها، واكيد انت عارف انها كانت مصاحبة ولد قبل ما تعرفك يعني وهي في تالتة إعدادي تقريبا ، ولما لقت ذوقك وشهرتك وطريقتك حبت تصاحبك إنت وسابت الولد التاني عشان إنت هتخليها مبسوطة دايما وتكون مهتم بيها علي طول... ودلوقتي وعشان إنت مشغول عنها بقالك فترة رجعت لصاحبها القديم ، وبيتقابلوا في كافيه ضحكة اللى علي البحر... ولو عايز تتأكد خلص امتحانك وروح وهتلاقيهم هناك... وآسفة مرة تانية علي الإزعاج...

وصمتت ، بعدما أشعلت حرب الثقة للمرة الثانية ، لتجعل عقله يفكر في مائة فكرة ورأي وليصبح شاردا لا يصدق ما تقوله، أيصدق تلك الكاذبة التي كذبت عليه منذ ثلاثة أعوام، أم يغلق المكالمة في وجهها بعد أن يدهس كرامتها تحت قدميه، من يدري! لكنه قرر وبدون تفكير أن يتأكد، فالأخرى قد هزت ثقته بها منذ عدة أشهر ومن الممكن أن يحدث كل هذا...

فرد ببروده الساكن المعتاد :

- إنتي مال اهلك؟

فظهر ارتباكها من عدة أصوات غير مفهومة قد صدرت منها، فتابع قائلا:

- ولو فعلا مع واحد دلوقتي زي ما إنتي بتقولي انا مسامحها... ومتتصليش بالرقم د تاني لو سمحتي...

ثم أغلق المكالمة، وسريعا ما رمق رسائله على موقع " الفيس بوك " فلم يجد أية رسالة ، فتجمع شكه على أنها قد قرأتها ثم مسحتها كى لا تصل إليه، فعاد القلق يعتريه مجددا كما اعتراه منذ سنوات...

****

منذ عام ونصف...

" إنت آخر مرة شفتها فين يا ادم؟ "

قالها حائرا لآدم في الهاتف، بعدما سار تحت حرارة الشمس لمدة ساعتين، فلقد مل التنقيب عنها، فقال آدم:

- أنا شفتها عند المركز.

فأخرج كازانوفا سبة ، وصاح قائلا في غضب:

- بعني أنا مش بشوفها غير كل شهر مرة، وبعت لها رسالة ووصلت على ال others" " ودا شيء عجيب، وقاعد بدور عليها في الشارع بقالي ساعتين، وأنت سبتني وروحت والمطلوب مني أرجع لشارع المركز تاني وأقولها افتحي الزفتة الرسايل...
- أمال إنت عايز تعمل إيه ؟

فأكمل كازانوفا بنفس النبرة :

- هقلتها... لو شفتها هقتلها...

فضحك آدم ثم أخرج سبة ، فضحك كازانوفا ثم عاد إلى هدوئه وقال:

- اقفل بقي عشان هي قدامي اهيه...

ثم أغلق المكالمة في وجه ادم بعدما شاهدها تقترب بخطوات بطيئة على جانب الطريق السريع والذي تمرق منه السيارات بسرعة هائلة ...

فقال كازانوفا لنفسه " يا انا يا انتي " ...

فقاطع تخطيطه محاولتها لتعدية الطريق بعدما اقتربت منه، وحينها اقتربت منها سيارة مسرعة ملأت الدنيا ضجيجًا، وفجأة وقفت غير قادرة على الحراك تنظر يمينها ويسارها، ثم ثبتت نظرها على السيارة التي كانت تقترب منها بسرعة مجنونة...

فركض كازانوفا بسرعة من مكانه محاولا إنقاذها ، وعندما نجح في الاقتراب منها دفعها بعيدا عن السيارة ، لتنجو ولكنه لم يستطع النجاة، فارتطمت السيارة بأسفل قدمه ، لتطيره في الهواء وتسقطه على الأرض بعد عدة أمتار ، بجانب الطريق، وسريعا ما اقترب منه المارة ووقفت بضع سيارات للاطمئنان عليه، بينما وقفت نور واضعة يدها على فمها تنظر إليه مرتعبة مما حدث ، فتلك المفاجأة وذلك الحادث الذي تعرض له بسببها جعلها صنما، تمثالا لا يستطيع الحراك، فقط تنظر إليه وهو ملقي على الأرض فاقدا للوعي وحوله الجميع يصيحون بطلب الإسعاف...

من دفتر الواقع

أفاق من شروده علي صوت رنة هاتفه، رمقه بطرف عينه ليجد صورة ياسين علي الشاشة، أمسك به بيده اليمني، وممسكا بيده اليسري المقود، ورد بصوت هادئ ينبع من نفس قد تعبها الحزن وأهلكها:

- آلوو

فصاح ياسين غاضبا:

- إنت فين؟ ومبتردش ليه؟

فرد كازانوفا بنفس النبرة:

- حابب اقعد لوحدي شوية.

فأخرج ياسين سبة، وقال مشتعلا غيظا:

- إنت شارب؟ ... وإيه صوت الهوا اللي جامبك دا؟ ... إنت سايق وانت شارب؟

فابتسم كازانوفا رغما عنه وقال:

- أنا بوظتلكم حياتكم بحزني وفشلي، قولها إن أنا آسف وان شاء الله مش هتشوفني تاني...

فصاح ياسين راجيا إياه:

- متتكلمش بالطريقة دي يا كازانوفا ... إنت فين طيب أنا عايز أجيلك...
- أنا مش هقدر أقولك أنا فين ، أنا بس عايزك تعملي خدمة... ممكن؟

فأكمل ياسين بنبرته الغاضبة :

- إنت فين؟

فأكمل كازانوفا غير عابئ بسؤاله:

- قلها اسمي الحقيقي... ممكن؟ ...

وفجأة سقط الهاتف من يد كازانوفا توترا عندما وجد سيارة تسير بعرض الطريق لتخرج من ذلك الاتجاه عبر فتحة صغيرة بين الرصيف الذي يفصل بين الاتجاهين ويقترب منها كازانوفا بسرعة هائلة، فرمق مؤشر السرعة الذي تعدي المائتين دون أن يلاحظ...

من دفتر الذكري

منذ عامين وبضعة أشهر...

" زمانه خرج من الامتحان من شوية "

قالتها فرحة عندما كانت تجلس في كافية " ضحكة " المطل علي البحر، إلي الشاب الجالس أمامها مبتسما ، فيرد حانقا:

- إنتي لسه بتحبيه ولا إيه ؟

فنظرت إليه بعدما تذكرت كازانوفا ، فسؤاله قد حرك مشاعر حاولت مرارا تجاهلها، تلك الفتاة الصغيرة في السن، والتي تسحر عيون الناظرين اليها بتلك الملامح الصغيرة بعض الشيء والشعر البني المتطاير، دوما ما كان يشببها كازانوفا بالشمس ويشبه نفسه بالقمر الصغير الذي يعيش ليعكس قليلا من ضوئها، وتترفع قليلا ثم تعطيه إياه ليعيش منيرا مطمئنا في سواد السماء ليلا ، لم يكذب عندما قال أحبها، فلقد قرر أن يبقي لها، ولكن مدي احتياجها وحبها لذاتها اكبر من ذلك الذي قدمه إليها، قطع شرودها بحركة مفاجئة عندما مد يده داخل سترته وأخرج علبه حمراء صغيرة ، ثم فتحها لتصرخ فرحا وتدمع عينيها فرحا من تلك المفاجأة، فلقد عشقت المفاجآت بغض النظر عن من يقدمها...

اخرج الخاتم من العلبة ومد يده ليمسك بأصابعها ومن ثم ألبسها ذلك الخاتم المرصع بقليل من الماس...

- أنت جبت الخاتم الجميل دا بمناسبة إيه؟

فابتسم وقال:

- دا بمناسبة إن احنا رجعنا لبعض تاني بعد غياب سنين...

فابتسمت رغما عنها، وقالت:

- بس دا جميل أوي وغالي أوي...

فضحك ضحكه جانبية قد شاهد أحد يضحكها، ثم قال :

- دا ياستي خاتم من سويسرا ووصيت أبويا يجبهولي مع البضاعة اللي جاية للمحلات...

فابتسمت مرتبكة عندما رمقت الساعة، فلقد شعرت انه سيأتي في أية لحظة، فمن يفعل شيء في السر يكون مرتعبا طوال الوقت رغما عنه ، وذلك ما يدعوه الضمير... الشيء الصغير الذي به يحيا الإنسان وبه يقوم نفسه بنفسه، وبه يصبح الإنسان وحشا في غابة ، انه نعمة الله على الإنسان، شيء يولد به لا يعرف مكانه ولكنه ينمو بتربية الآباء، إما يخرجوه مشوها وإما يصلحوه...

فقالت دون الالتفات لحديثه:

- إيه رأيك لو نمشي؟

فنظر لها متسائلا، فأشارت بسبابتها إلي ساعة يدها ، ففهم مرادها ، فأومأ برأسه أن نعم، ثم التفت يمينا وصاح مناديا للعامل ، وبعد لحظات جاء معه شيء مثل كتاب صغير أسود اللون ويحوي ورقتين كتب في إحداهما الحساب، وحينئذ تعجبت فرحة من وجود ورقتين، فالمعتاد ورقة كتب بها المبلغ فقط، فأمسكت بالشيء الصغير وفتحته، لتجد ورقة مكتوبة بخط اليد، وذلك الخط لم تنسه بعد، فقرأت بتمعن...

" شكلكم حلو اوي وأنتم مع بعض، ولسه شكلك حلو وانتي بتتفاجئي، متحسبيش عشان الحساب خالص ... صحيح ...

متتصليش على رقمي تاني عشان غالبا هتلاقيه مقفول ... وأنا هعمل كأني معرفتكيش ... enjoy"

وامسك الشاب بورقة الحساب ثم اخرج محفظته، فقاطعه العامل مبتسما:

- حساب الترابيزة خالص يا فندم.

فنظر له متسائلا، لترد هي والدموع تتساقط على وجنتيها فلم تتحمل تلك المفاجأة، فلقد اعتادت الفرحة حينما يفاجئها، ولكن اليوم فاجأها بما لم تتوقعه، فاجأها بفراقه...

- أيوه الحساب خالص...

ثم خلعت الخاتم من إصبعها وألقته على الطاولة بعدما وضعت الورقة بجانبه، ثم وقفت وركضت تجاه الباب باكيه، ليصيح بها الشاب متعجبا غاضبا من مغادرتها،

فنظر إلي الورقة عاقدا حاجبيه، وأمسك بكوب الشاي الموضوع أمامه، ثم رشف منه رشفة، وبعدئذ أخذ يقرأ ما كتب...

" شكلكم حلو أوي وأنتم مع بعض، ولسه شكلك حلو وانتي بتتفاجئي، متحسبيش عشان الحساب خالص ... صحيح ...

متتصليش على رقمي تاني عشان غالبا هتلاقيه مقفول ... وأنا هعمل كأني معرفتكيش ... enjoy"

فضحك رغما عنه، واخذ يضرب كف علي كف من تلك المفاجأة غير المتوقعة، ثم أخرج سبة وقال:

- يا بن اللذينة...

منذ ثلاثة أشهر...

دخل إلي غرفته سريعا، ثم أغلق الباب بقوة ثم أغلقه بالمفتاح من الداخل ، ظل متماسكا يمنع الدموع ولكن بعدما ألقى جسده على السرير فقد السيطرة على تلك الدموع، لتتساقط بغزارة فوق وجنتيه، فأخذ شهيقا وزفيرا كي لا يخرج صوته المبحوح، ما يتحمله من جراح لا يتحمل ثقل آخر، فظل باردا مبتعدا عن كل ما يحتمل أن يضره، ولكنه لم يكن بالقوة الكافية ليواجه تلك الظروف التي طالما أرادت أن تصقل شخصيته، ولكن نفسه وما وسعها لم يستطيعا معها صبرا...

حاول علي أمل أن تنفرج الخطوب، ولكنه كان يتابعها يوم تلو الآخر وهي تزداد على عاتقه...

ظل للحظات كاتما لصوته، ولكن سرعان ما حركته مشاعره وزادت حدتها في داخله، عندما تذكر نتيجته التي ذهب ليحضرها، فلقد سقط لأول مرة في حياته منذ بدء تعليمه ، كازانوفا الشاب في الصف الرابع من كلية الهندسة ، قد انتظر تلك النتيجة ليعلن للكون انه أصبح في الصف الأخير، وليذهب لخطبة نور التي تنتظره منذ عام ونصف، والتي كانت تصبر أهلها بنجاحاته وتقديراته المرتفعة في الجامعة وترفض كل من يتقدم لها...

ما يجعله يبكي بحرقة، ليس سقوطه، بل ردة فعلها وفعل أهلها عندما يعلموا أنهم مطالبون بالصبر لعامين آخرين، وحينئذ ستبتعد عنه رغما عنها أو بإرادتها، وبعدئذ يواجه الجرح الثالث...

رن هاتفه فرمقه من خلف الدموع ليجد صورتها المبتسمة تطلب منه الرد، فمد يده وأمسك بالهاتف ثم أخذ نفسا عميقا ومسح دموعه وضغط على زر الرد، ثم قال بعدما اكتسب صوته نبرة حميمة رغما عنه:

- ألو... فصاحت ضاحكه:
- أيوة يا حبيبي، ممكن أعرف مكلمتنيش ليه لما جبت النتيجة؟

فرد باردا ممسكا حزنه :مكنش معايا كريديت...

صمتت عندما شعرت بهدوئه الغريب في مثل هذا الوقت، فليس من عادة كازانوفا أن يحدثها هادئا بتلك الطريقة يوم إعلان النتيجة، فتنهدت ثم قالت بروحها المرحة:

- طيب طمني ... جبت جيد جدا ولا امتياز؟؟

فصمت قليلا، ثم قال بصوت خفيض به شيء من الانكسار:

- سقطت...

فصمتت هي الأخرى بعدما سمعت تلك الكلمة، فلم يكن بمقدورها التخيل بأن يسقط ويبعدها عنه مئات المسافات، وليس بتلك السهولة يقول لها ابتعدي!، فقال كاسرا الصمت:

- أنا عارف إنها مفاجأة بس المهم إن أنا سمعت صوتك انهارده...

فلم ترد، ليضحك ساخرا رغم عنه ويقول:

- إنتي كويسة؟

فزادت لا مبالاته غضبها الذي تخفيه، ليقول مازحا دون تفكير في معني الحديث:

- طيب وايه يعني لما أسقط، هتأخر سنة زيادة مش شايفها مشكلة يعني... انتي شايفاها مشكلة؟ ... وحتى لو مشكلة المهم نبقي كده ...

ذلك الحديث جعلها تتأكد انه غائبا عن الوعي، فقالت بعدما سقطت دمعة على وجنتها:

- إنت شارب؟

فابتسم رغما عنه وقال:

- حاجة زى كده...

أراد أن يجعلها بتلك الطريقة، كي لا يطول الحديث، فقالت باكيه:

- شكرا يا كازانوفا، بجد شكرا...

ثم أغلقت المكالمة في وجهه، وظل هو ممسكا بالهاتف ومازال واضعا إياه على أذنه ، من صدمة حديثها وإغلاقها المكالمة في وجهه ، فقد شعر أنه أحقر من وجد علي الأرض، أحقر من ذلك الذي يقف فوق اعلي مبني ويقتل الضعفاء برصاص الاحتلال، وأحقر ممن يغتاب صديقه ليكسب رضا آخرين حقراء، يشعر وانه أسوء شيء تعرضت له تلك الفتاة...

****

منذ اسبوعين...

لم يتحدثا تلك الفترة، ظل معتكفا في بيته فاقدا الأمل لأي ضوء يتسلل إلي قلبه، اعتاد يوميا أن يحتسي فنجانان من القهوة، ليظل جالسا مستيقظا ينفث دخان السجائر أمام صورها الضاحكة، يا له من جرح ثالث لم يرده، ولكن الله أراده، فلا يملك شيء ليفعله سوي الانتظار، يمسك هاتفه في كل ليلة ويحاول الاتصال، ولكنه دوما ما يمنع نفسه، حتى لا يسبب لها مشاكل أكثر مما فعل، أرادها أن تسير في حياتها، وتواجه من غيره وتنساه، واكتفي بمتابعتها على " الفيس بوك " ليعلم جديد أخبارها...

وفي ذلك اليوم، رن هاتفه، فابتسم عندما وجد صورتها تناديه، فأمسكه سريعا ثم ضغط على زر الرد وقال بنبره بها شيء من الحنين:

- أزيك يا نور ؟

فصمتت بعدما سمعت صوته، لعلها تشبع قلبها الذي اشتاق لصوته، ثم أغمضت عينيها لتتمالك نفسها ولتتحدث بالنبرة التي تمرنت عليها طويلا لتلك المكالمة وقالت:

- الحمد لله يا كازانوفا ، أنت عامل إيه؟

فابتسم فرحا من سؤالها، وقال:

- الحمد لله يا نور ، طالما إنتي كويسة ومبسوطة...

فردت بنبرة جافة بها مزيج من الجفاء والغيظ:

- طبعا مبسوطة وجيت كمان أبسطك معايا...

فابتسم شوقا لتلك المفاجأة ، فردت بنفس النبرة:

- خطوبتي كمان أسبوعين ياريت تشرفني...

صمت للحظات محاولا التماسك، ثم ابتسم في برود وقال:

- أكيد لازم أشرفك...

فقالت ودموعها تتساقط:

- متنساش يا كازانوفا...

فقال مبتسما رغما عنه:

- إن شاء الله مش هنسي...

فردت بصوت خفيض وكأنها لا تود إغلاق المكالمة، ولكن الحديث يحتم لذلك:

- سلام...

فأغلق المكالمة دون أن يرد السلام، ثم اكفهرت ملامح وجهه رغما عنه وشرع بالبكاء، وبعد لحظات ألقى بالهاتف بعيدا ليرتطم بالباب ويسقط على الأرض، ثم نظر إلي أعلي والدموع تغطي وجهه وقال بصوت خفيض بسبب البكاء:

- يا رب...

منذ أسبوع

وضع جسده علي السرير واحتضن ركبتيه إلي أضلاع صدره ، وأخذ يرتعش من كثرة الأفكار التي تمرق في عقله، ذلك البرد الذي يهشم عظامه دون إرادته، تلك الدموع التي تقتل نفسه دون رحمة، وذلك الأنين الذي يخرج من حلقه تألما، لقد وصل به الحال أن أصبح فاقدا للوعي شاردا طوال ساعات يومه، ولم تذق عيناه النوم منذ مكالمتها الأخيرة، فرغم روحه المرحة التي نشأت بداخله منذ صغره والتي يراها تنكسر وتتحول إلي فتات يحاول أن يجمعها من قلوب قد تركها فيها، يبكي منذ شهور... تلك الآلام التي يشعر بها و تحرمه من تلك الابتسامة التي افتقدها، تلك الابتسامة التي ابتعدت عنه فكسرته بابتعادها، يا لها من ظروف قاتله، و يا له من طفل صغير خائف من الواقع...

أعاده ذلك الجرح إلي طفولته، فجعله فارغا من الداخل... يحلم فقط بأن يبتسم!

...

للإنسان ثلاثة أعمدة يقف عليهم ويمدوه بالعافية ويدعموه للتقدم، ولكل واحد فيهم ثلاث نقاط ضعف يدعون، انعدام الثقة، الابتعاد، والموت، وهم: عائلته، صديقه، وحبيبته وبعدهم يرتب أي شيء... فإذا هدم أحدهم يضعف الإنسان ولكنه يستطيع العيش ، وإذا سقط الثاني يعجز، أما لو سقط الثالث فسيموت...

خبط باب الشقة بلين، فرفع كازانوفا رأسه من على السرير ليستطيع السماع، وبعد لحظات خبط مرة أخري ، فأخرج كازانوفا زفيره غاضبا ، ثم وقف ومسح دموعه ، واتجه ناحية الباب ، فوجد ياسين يقف أمامه مبتسما يتفحص وجه كازانوفا بنظرات سريعة ليطمئن أنه بخير، فوجد تجاعيد قد ظهرت في وجهه من كثرة الحزن وقليلا من الدموع مازالت تاركة بقاياها على وجنتيه، فابتسم له كازانوفا وقال بصوت مبحوح من كثرة الصمت:

- اتفضل يا ياسين...

ثم استدار واتجه ناحية غرفته سريعا، فدخل ياسين ثم أغلق الباب من خلفه وتبع كازانوفا إلي غرفته ، فنظر إليها ليجدها ، مهملة ،كل الملابس ملقاة على الأرض وعدد كبير من الأكواب ملقاة بجانب السرير، وبجانبهم بقايا طعام فاسد... فنظر إلي كازانوفا الذي يرمقه مبتسما، وقال:

- طبعا يا ياسين أنت مشمئز من المنظر اللي أنت شايفه ده.

فابتسم ياسين رغم عنه وقال:

- أنا بس زعلان عليك...

فاخرج كازانوفا سيجارتين من علبته ثم أعطي ياسين واحدة، وأشعل سيجارته وقال نافثا للدخان: أنت عرفت طبعا...فأومأ ياسين رأسه أن نعم ، فاستطرد كازانوفا مستهزئا: ضاعت مني..ثم بكي... فاقترب منه ياسين في لين، ثم ربت على كتفه في لين وقال:

- إهدا يا صاحبي، كل شيء قسمة ونصيب... واللي خلقها أكيد خلق غيرها...

فنظر له كازانوفا من خلف الدموع، ثم ابتسم في برود وقال بصعوبة:

- فاكر يسرا ؟

فنظر له ياسين متسائلا، فأردف كازانوفا باكيا مبتسما:

- حبتها وأنا طفل وكنت بحلم أن أنا أكون معاها طول عمري ، وبسبب طيبتي اتكلمت مع صاحبي وداروا عليا، أنا مزعلتش عليها زي ما زعلت بسبب صاحبي...

ثم احتدم بكاؤه، فربت ياسين علي كتفه مرة أخرى ، فأكمل كازانوفا:

- ولا فاكر فرحة؟ ...

ثم صمت محاولا التماسك لوهله ، وأكمل:

- البنت الصغيرة اللي اطمنتلها وحبتها وادتها الأمان والثقة بعد ما صدقت رجعت اثق في حد، البنت الصغيرة اللي كانت فرحتها تغنيني عن الدنيا واللي فيها ، كذبت ورجعت لحبيبها القديم عشان يخليها مبسوطة...

أخذ نفسا عميقا من السيجارة، التي تركها مشتعلة لدقائق فأسقطت بعض من رمادها على ملابسه، فلم يعبأ، ثم نفث الدخان بقوة قائلا:

- هو ليه دايما كدة؟ ... ليه دايما أنا الضحية؟ ... ليه كل واحدة اخترها واقربلها تبعني؟ ...

ثم صرخ:

- ليه؟

ثم أكمل بعدما هدأ ومسح الدموع التي بدأت بالسقوط على ملابسه:

- نور...

ثم تابع مبتسما من كثرة الآلام:

- البنت اللي خلتها جمبي سنة ونص... خلتها تحبني... وفي الآخر وبسبب ضعفى ضيعتها...

ثم صمت، وأشعل الغرفة بكاء، فاحتضنه ليحنو عليه بعدما شعر بضعفه: ثم قال:

- أتكلم يا كازانوفا متسكتش...

فقال كازانوفا مغمضا عينيه بقوة:

- كلنا اتخدعنا، كلنا عيطنا في أوضتنا بليل، كلنا تانى يوم بندور على الحياة عشان نكمل ...

ثم ابتسم، من خلف الدموع ... ابتسم لأنه قد قرر ما سيفعله ... سيكمل ...

****

منذ ساعتين...

توقف بالسيارة أمام محل لبيع الخمر على الكورنيش ، ثم أشار للعامل بداخل المحل بيديه وقال:

- إزازة فوديكا لو سمحت...

وبعد لحظات خرج العامل ومعه كيس أسود قد وضع الزجاجة بها، ثم اقترب من نافذة السيارة ، وأعطي الزجاجة الي كازانوفا ، ثم أعطاه كازانوفا ورقة بمائة جنية وقال: خلي الباقي علي شانك ... انهارده آخر مرة هشتري منك...

ثم ابتسم، وضغط دواسة البنزين بقوة ورحل بالسيارة...

بعد مرور عدة ساعات...

جلس رجل خمسيني على كرسي خشبي في شرفة منزل بالطابق السابع ، يضرب كفا علي كف مما قرأ ويصيح قائلا:

- لا حول ولا قوة الا بالله ... آدي الشباب وتهورهم ...

فخرجت إلي الشرفة امرأة يظهر عليها صغر سنها بالنسبة لذلك العجوز، وتقول مرتعبة:

- في إيه يا رمضان؟ ... حد من العيال جراله حاجة؟

فابتسم رمضان ثم قال:

- لا يا تهاني مفيش حاجة بس كنت بلعب كاندي كرش وفجأة لقيت أخطار بيقولي ان ابنك ادم عاملي مشاركة في منشور، ولقيته بيقول...

ثم فتح الهاتف وعدل نظارته وأكمل:

- ادعوا له يا جماعة بالرحمة، توفي شاب عنده 23 سنة في حادث سيارة على الكورنيش في اسكندرية، بسبب سرعته الهائلة اسمه كازانوفا ... ومن اللحظة دي أدهم عبد المجيد عاش! ...

ثم قال مستدركا:

- انا بس الي مش فاهمه ايه أدهم عبد المجيد عاش دي؟

فردت بعدما هدأت قليلا:

- تلاقيه أبوه ولا حاجة.

فصاح رمضان غاضبا:

- يا ولية بيقولك عاش...

فردت تهاني غاضبة بعدما خرجت من الشرفة:

- قلتلك قاندي كرشت دي هتجننك يا رمضان مسمعتش كلامي...

فابتسم رمضان مستهزئا، ثم فتح "كاندي كراش " واخذ يكمل اللعب ...

" الفصول الأربعة "

الجزء الأول

" الشتاء .. والربيع "

(1)

الشتاء ...

موسيقى الجيتار ... عندما تتلاعب خفه الأصابع بأوتاره ، فتصدر الموسيقى لتتراقص المشاعر في وجدان كل من يسمعها ... ويضعف القلب أمام الخيال ... وتتلألأ الدموع في الأعين وهي تتذكر مزيج الذكريات كما الحرب!، عندما يصبح الحاضر ذكريات أمام تلاعب الأصابع بزناد السلاح ... وحينها فقط ... تتساقط الدموع وتمتزج بالدماء ...!

في عام من الأعوام ... لا يمكن تحديده ولكن يمكن القول انه عما قريب ... قريب جدا ...

الساعة السابعة صباحا ...

استيقظ على صوت الطائرات المحلقة بقوة في السماء، وكأنها وحوش تحذر الأحياء بأن نهايتهم اليوم ، وللأحياء الخوف من هذا الوحش الذي يمكن أن يضرب بحياتهم عرض الحائط في أيه لحظة دون حساب ...

فتح عينيه في خوف عندما سمع الصوت القوى، انتفض من موضعه في عجلة ووضع يده تحت الوسادة مخرجا مسدسه الصغير ، فقد أصبحت عادة لا إرادية يأمره بها عقله الباطن في تخيل بأن السلاح الصغير سيسقط الوحوش ! ... وبعد

ابتعاد الصوت ، أخرج زفيره في راحة وكأن الطائرات قد تركت روحه لساعة أخرى ... تحرك من مكانه سريعا لينظر من شرفه الغرفة الصغيرة، ليجدهم ابتعدوا ... أغمض عينيه للحظات حتى يهدأ وهو يتنفس الصعداء من كثرة الخوف، فقاطعه الصوت من صالة البيت المدمر تقريبا يقول:

- لقد مللت هذا الرعب، حسبي الله ونعم الوكيل فيمن كان السبب ...

فتح عينيه ليرمق الساعة، فوجدها السابعة والربع، اعتدل ثم قام من على السرير، نظر لنفسه في قطعه المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط، لتقع عينيه مجددا على محتويات الغرفة ...

غرفة صغيرة وقع الطلاء من على حيطانها بسبب كثرة الرصاص ... بعض الثقوب في الجدران وسرير مدمر تقريبا ولكنه مازال متحملا ... مكتب خشبي صغير وعليه العديد من الكتب ومصباح صغير ... في مشهد يدل على أن الفكرة أقوى من أي شيء ...

نظر إلى وجهه الشاحب الذي يظهر عليه سوء التغذية بملامحه المتناسقة والكبيرة بعض الشيء وأخذ يتحسس ذقنه السوداء الكثيفة ...

قاطعه الصوت من الردهة:

- هل استيقظت يا يوسف؟

فصاح يوسف بصوته الغليظ بعض الشيء:

- نعم يا أمي، هل من جديد؟

- وهل هناك جديد نعيشه غير الموت والحرب والبكاء في هذه المجاورة.

خرج من الغرفة لينظر الى والدته الجالسة على أريكه قديمة وبأطرافها بعض الثقوب من الرصاص، ثم قال في حنق:

- وهل لدينا حل آخر سوي هذه المجاورة يا أمي؟!

فنظرت له مبتسمه آمله، لأنه ولأول مرة فتح هذا الموضوع الذي تشتهيه:

- ما رأيك في المجاورة الأولى على الأقل هادئة ...

صمتت لثوان ثم قالت مستدركه:

- فلقد سمعت أن الحرب قلما تشتعل هناك ...

أخرج زفيره ثم نظر إليها في فتور وقال بصوت بارد:

- وكيف سنصل الى المجاورة الأولى ... أتريدين أن نسير وسط الطائرات والجنود؟ ...

فقاطعته قائلة في انكسار:

- أعلم أن هذا الأمر ليس بالصعب ، فأنت لك أصدقاء كثيرون يمكن أن يعيروك سيارة ...

قاطعها قائلا ولقد زاد غضبه:

- أماه ... إذا خرجنا من البوابات سنلقى حتفنا بعد أولى الخطوات ...

نظرت له الأم في انكسار وحسرة، حتى شرعت في البكاء ثم قالت:

- أخشى أن استيقظ يوما ولا أجدك امامي ... أخشي أن أجرب هذا الإحساس مجددا ...

بدا على وجهه اللين عندما سمع تلك الكلمات، فاقترب منها في هدوء ، ومسح دموعها وقبل جبهتها ، وقال باسما :

- أنا أمامك الآن ، حي أرزق والحمد لله ... فما رأيك أن ننسى ذلك الإحساس، وأعدك يا حبيبتي أنه سيأتي اليوم الذي سنهرب فيه من هنا ... الى مكان آمن أنا وأنت ...

ابتسمت من خلف الدموع وأمسكت برأسه في لين وجذبتها ناحيتها، ثم قبلت جبينه وقالت:

- إن شاء الله ...

قاطعهما صوت السيارات الكبيرة المحملة وهي تحطم قطع الأخشاب الساقطة من المنازل والمتناثرة في الشارع، نظر إلى أمه مبتسما ثم قال:

- لقد أتت المعونة... سأحضر حصتنا ...

اومأت الأم برأسها أن نعم وعلى وجهها ابتسامة مبهجة تداري الألم الذي في عينيها ...

****

وقفت السيارات في منتصف الميدان الصغير الذي يتفرع منه ثلاثة طرق ... حاول أن يسير في الأماكن الجافة ولكن سرعان ما دهست قدمه في الطين، نظر إلى السيارات فوجد تجمعا هائلا حولهم في أقل من دقائق ، ركض سريعا حتى وصل إلى الزحام الذي ينتظر أمامه شخص ومعه صندوق خشبي كبير ...

وقف يوسف أمامه وهو ينظر إليه مبتسما ثم قال:

- وأخيرا وصلت المعونة التي انتظرناها منذ شهور ...

نظر الشخص في عينيه بصرامة ثم قال:

- ترتاح أنت في منزلك واغوص انا وسط الطين والتراب والرصاص واتى لك بالمعونة ...

ربت يوسف على كتفه مبتسما ثم قال:

- هكذا هي الصداقة يا صديقي

فأكمل الشخص بنفس الصرامة:

- للأسف عندي لك أخبار سيئة ...

فنظر له يوسف متسائلا، فتابع:

- إن الجنود زودوا حيطتهم وزودوا عددهم في الحصار ومن الصعب دخول أو خروج أحد ليأتي بالمعونة

فقال يوسف وقد ظهر على وجهه القلق:

- وهذا يعنى إن المعونة القادمة ستتأخر ...

فقال الشخص :

- أو لن يكون هنالك معونة مرة أخرى ...

نظر يوسف له بعدما زاد القلق أكثر ثم قال:

- شكرا لك على المعونة يا عزت ...
- لا شكر على واجب يا صديقي ...

فمد يوسف يده ليحمل الصندوق، فأمسك عزت بزراعه وقال:

- سيكون هناك اجتماع اليوم في منزلي، وأريدك أن تحضر ...

نظر له يوسف وقد حنق منه ثم أبعد يده وقال:

- شكرا لك على المعونة يا صديقي ...

ثم أخذ يوسف الصندوق في صمت، واستدار وسار باتجاه المنزل في خطى بطيئة خوفا من الطين ، وهو يفكر في أمر الحصار ...

*****

وعند البحر ... جلست والخوف بعينها تتأمل الموج الغاضب وهو يضرب الصخور الصلبة كأنهما طرفا حرب لا يكلان أبدا عن الهجوم والدفاع، فالبحر يتلذذ الهجوم ومازال الصخر صلبا، تجلس بثوبها الأسود الواسع الذي يحركه الهواء بقوة،فهي

تعشق ارتطام الهواء البارد بها رغم تقلب الجو، كانت تحدق بعينيها البنيتين الواسعتين البحر وتتذكر ما مضى ... فقاطعها هو قائلا من خلف الأشجار:

- إن جلسة البحر لها مذاق خاص ...

نظرت خلفها بعدما ميزت الصوت فقالت باسمة في ضعف وبصوت مبحوح:

- أعشقه ...
- كما تعشقينني؟

قالها وهو يهبط من فوق التل الصغير المطل على البحر ليجلس بجانبها ...

فقالت وهي تنظر لعينيه مباشرة:

- أعشقه لأنه يذكرني بك ...

ابتسم وهو ينظر إلى عينيها مباشرة، ثم وضع يديه على كتفها وضمها إلى صدره وقال:

- أحبك يا ريم ... أحبك أكثر من أي شيء في هذه الحياة

فاهتزت بسبب كلماته ، فلأول مرة يقولها بهذا العمق الداخلي ، فتابع قائلا:

- أو تعلمين ... لا تهمني الحرب ولا يهمني الموت ... قدر ما تهمينني ... عندما أسمع صوت الطائرات وأظن أنها النهاية ... أتذكرك ... لأنني أخشي فرا...

وضعت سبابتها على شفتيه لتجعله يصمت، ثم اقتربت منه مغمضة عينيها لتقبله لثواني ... ثم ابتعدت عنه وهي تنظر إلى أسفل من الإحراج، فرفع وجهها لتتلاقى أعينهما ... ثم قال:

- أنت الحياة بالنسبة لي ...

ابتسمت وقالت في هدوء:

- كيف عرفت مكاني؟

فهمس في أذنيها بهدوء قائلا:

- وكيف يعرف المرء أنه على قيد الحياة ؟

ابتسمت، فابتسم، وتابع قائلا:

- لقد أتيت بالمعونة ووضعتها في البيت ... ولكن هناك أخبار سيئة ...

فنظرت له متسائلة، فجاوب قائلا:

- ستمنع المعونة لفترة أطول ... فلقد زود العدو عدد الجنود في الحصار ...

وسعت عيناها في ذهول ناظرة إليه، ثم قال:

- لا تقلقي ؛ فاليوم سأجتمع مع عزت والصحبة في منزله لندرس هذا الأمر ...

نظرت له غاضبة من حديثه، ثم قالت في حدة:

- لا يا يوسف ... فلقد عاهدتني أنك لن تفكر في هذا الأمر مطلقا ...

أغمض عينيه لثواني، ثم أخرج زفيره وقال بعدما عقد حاجبيه في ضيق:

- يجب أن اتخذ خطوة في هذا الأمر... لن أقف مكتوف الأيدي ... واعلمي أنني لن أتركك يا ريم أنت وأمي ...

سقطت منها دمعه دون قصد فحاولت أن تكتم بكاءها، ولكنها لم تنجح فشرعت في البكاء وهي تقول بصوت مبحوح:

- أنت لا تفهم ... لا أريدك أن تخاطر بحياتك ...

فصمتت لوهلة محاولة أن تتمالك نفسها ثم أمسكت بذراعه ووضعت وجهها به وقالت في ضعف:

- لا أريدك أن تضيع مني ... لا أريد أن أصبح مثل أمير ...

صمت للحظات عندما سمع الاسم ،ثم وضع يده على كتفها ليضمها الى صدره ثم قال:

- إذا لن أذهب للاجتماع ... ولن أفعل شيء اليوم سوي انني سأشوى بعض اللحم لنا ...

فرفعت رأسها ناظرة إليه، وابتسمت من خلف الدموع، ثم قالت:

- ستشوى لنا اليوم ...

فهمس في أذنها مجددا قائلا:

- وكل يوم ما دمت أتنفس ...

*****

ظل جالسا بجانبها يرمق البحر في شرود، يتذكر كل ما مروا به، يتذكر الرصاص، الألم،والدماء ... يتذكر عندما شعر بأولى نسمات هواء العاصفة، عندما نظر إلى السماء ووجد الطيور تهرب خوفا مما قادم ... حاول أن يتحدث ولكنه خاف ...

ذكرته بأمير ... كيف ذكرت أمير أمامي؟ لماذا الآن ؟ ... لماذا عندما أنسي يذكرونني؟ ... هل نسيت فعلا ... أم فقط أتناسى؟ ...

ارتطم الهواء البارد في صدره، فجعله يعود من حالة الشرود لينظر اليها، فوجدها ناظرة اليه باسمة ... فقالت مقاطعه الصمت الذي طال:

- فيما كنت تفكر؟

نظر للبحر ثانية ليداري عينيه التي تخفى الحزن والقلق،ثم قال :

- في كل شيء ...

فقالت في محاولة تلطيف الجو عندما شعرت بحزنه الدفين:

- لقد شعرت بالبرد ما رأيك في أن نعود للمنزل؟

ابتسم ثم أومأ برأسه أن نعم، ثم وقف ومد يده لها وقال:

- هيا بنا يا أميرتي

******

في المنزل ... الساعة الثامنة ليلا...

تجمع الجميع حول النيران التي أوقدها يوسف في منتصف المنزل ببعض الحطب ... جلس أربعة أشخاص بينهما ريم التي كانت تتحدث مع والدة يوسف والسعادة تملأ وجهها عندما ترمقها الأم بنظرات لا يفهمها أحد غيرها، ويوسف المنشغل في شواء اللحم الذي أحضره من المعونة ويرمق أمير الجالس بصمت ناظرا إلى الأرض في هدوء ويأس ...

فقال يوسف في محاوله تلطيف الجو:

- لحم المعونة لا نعلم ماهيته بالضبط هل هو لحم بقرى أم حمير ...

نظرت له الأم والابتسامة الطيبة على وجهها، ونظرت له ريم بضحكة مصطنعة وسريعا ما رحلت عن وجهها عندما رمقت أمير الذي مازال ناظرا إلى الأرض في شرود وكأنه صنم لا يشعر ولا يحس بأي شيء حوله ...

تابع يوسف نظرتها فنظر هو الآخر إلى أمير، وقال:

- مرحبا بك أيها الصنم في بيتنا الصغير ...

نظر له أمير عندما لاحظ اتجاه النظرات عليه نظرة جذلة غريبة لم يفهمها سوي يوسف، ثم ابتسم رغما عنه وأومأ برأسه محيي، وسريعا ما أعاد شروده إلى الأرض ...

نظر يوسف إلى والدته في ضيق عندما وجد الدموع تتلألآ في عينيها ووجد الدمعة الصغيرة التي سقطت على وجنتي ريم ...

فوقف سريعا وذهب إلى أمير وربت على كتفه في لين محاولا أن يحنو عليه، ثم قال بصوت به شيء من البرود:

- ما رأيك في أن تخرج من شرودك وحزنك قليلا وتحاول ان تجلس معنا وتبتسم؟

أخرج زفيره محاولا تهدئة غضبه، ونظر إلى عينيي يوسف في ضيق وقال في حنق:

- اتركني وشأني يا يوسف فأنت لا تعلم ما امر به ...

فقال يوسف في اقتضاب:

- حاول أن تبتسم ...

أغمض أمير عينيه لثواني مخرجا زفيره بقوة، وكأنما ينذره بأنه لن يستطيع معه صبرا ويكف عن محاولة جعله يبتسم مجاملا، ثم أعاد نظره إلى الأرض مجددا متجاهلا حديث يوسف ...

وترقبهما الأم وريم في قلق وخوف من أن تنقلب الأمور، فأصبحت عندهم حاسة زائدة ، يستطيعون تقدير وقت الحرب من معالم بسيطة قبل حدوثها...

ربت يوسف على كتفه في هدوء ثم قال:

- انظر إلى نف....

فقاطعه أمير في صياح:

- انظر أنت إلى نفسك!

هدأ للحظات عندما رمق ملامح الأم وريم التي تحولت إلى ملامح ارتعاب، ثم أكمل بنفس الحدة:

- انظر إلى أمك كيف تطمئنها يوميا بأنك ستعيش من أجلها ولن تكرر المأساة المشؤومة مجددا ؟ انظر إلى فتاتك كيف تبقيها بجانبك وتوعدها أنك ستعيش معها في أمان طوال الوقت ... كيف ستتزوجها ؟ ... انظر إلى نفسك ... انظر كيف بخوفك العقيم تركت ما حدث يحدث ... انظر إلى بيتك ...

ثم أشار بسبابته سريعا إلى جميع أنحاء المنزل، وأردف قائلا:

- انظر بعين العقل لا بعين الروح ... انظر إلى ما وصلنا له بسببك ... انظر كيف ماتت روز ... وانظر إلى ...

صمت للحظات عندما ذكر اسمها، ليشعر بكثير من الغضب يجتاح روحه ويعيق خروج كلماته ليكمل بجراءة وحدة وكأنما يعاقب من يستحق العقاب:

- أتري أين نعيش، نعيش في مقبرة حثالة ... يمر عليها القاتل ليطمئن أن جثته ماتت ... أفرح انت بالصندوق الخشبي الذي يلقيه لك عزت كل بضعه أشهر؟ ... أم يرضيك خوف أمك كل يوم ان تفتقدك مثلما فقدت أخيك منير ...

رفع يوسف حاجبيه في ذهول مما سمع ، فلم يعتد تلك النبرة من أمير الصامت، فشرد يوسف للحظات عندما سمع اسما قد تناسى ذكراه، ظل شاردا يسمع الحديث كمن صمت أذنيه ...

أكمل أمير بنفس الحدة متجاهلا دموع ريم وصراخ الأم، أكمل ليقوم بالضربة اليسارية القاتلة في جسد قد مات فعلا ...

- إنك تتناسى فقط، تشعر نفسك يوميا بأمل كالدخان ... ووعود لن تفعلها ... روحك مجرد تمثيلية تمثل ببراعة إنما أنت مثلى تماما ميت على قيد الحياة ...

ثم استطرد قائلا:

- جميعنا ميت على قيد الحياة ولا استثنى أحدا ...

ثم صمت ...

صمت بعدما أشعل الدنيا نيرانا ...

صمت بعدما تحدثت رصاصته الراحمة وسكنت في صدر الموجودين ...

تحولت نظرات ثلاثتهم تجاه يوسف الذي مازال شاردا، فتحت عينيه عن آخرهما وظل رامقا الأرض دون أن يرمش له جفن، يفكر فيما سمع ، يفكر فيما أصابه كلام أمير من جرح في وتر مجروح فعلا ...

لماذا يا أمير؟ ... لماذا تذكرني بهذه الطريقة الفجة؟ ... لماذا تذكرني بما أحاول أن أنساه؟ ... لماذا تصر أن تخرجني من شعوري؟ ... كل هذا لأنني أردتك أن تبتسم ...

أفاق من شروده عندما سمع تأوه والدته بسبب البكاء، وصوت ريم المبحوح:

- يوسف!

رسم ابتسامة مصطنعة ثم نظر إلى ريم بعينيه التي هربت منهما دمعه لتسقط على وجنته، ثم قال بصوت خفيض وبرعونة شديدة:

- أنا بخير يا ريم

ثم أردف قائلا بنفس النبرة:

- وانت يا أمي كفاك بكاء ... فأمير يبوح عما في نفسه فقط ولن يجد أقرب منى ليفرغ فيه ...

نظر له أمير عندما اتجهت النظرات إليه، ظل ناظرا إلى يوسف في ذهول مما قال، حتى شعر بأنه زاد من حدته فقال مخففا وطء الحديث:

- آسف يا يوسف عما قلت ولكنك تعلم أنني...

قاطعه يوسف مبتسما رغم الألم قائلا:

- لا عليك فأنا أفهمك جيدا ...

ثم أطفأ النار المشتعلة على الشواء الذي احترقت بعض أطرافه بسبب تركه مدة طويلة، ثم خرج من المنزل مسرعا دون أن يلفظ أية كلمة ...

وظل الجمع ناظرا إلى الباب الذي أغلقه بقوه ...

وبعد لحظات من الصمت، ربتت ريم على كتف والدة يوسف في لين محاولة تهدئتها ثم قالت:

- سوف ألحق به ...

وسريعا ما خرجت من المنزل مسرعة ...

ونظرت الأم إلى أمير بنظرة امتزج بها القلق والحزن والغضب امتزاجا، وظل الأخير شاردا ينظر إلى الأرض في ذهول مما حدث ...

******

أخذ يركض بكل سرعته تجاه الأشجار التي تفصل بين المدينة والبحر والدموع تتساقط بنفس السرعة ... لم يكن يعلم أنها تمطر ... لم يكن يفكر في شيء سوي الهموم التي أثقلته ... لقد جرح مجددا ولكن الجرح في هذه المرة لن يصحو بسهولة ... يركض ولا يرى شيئا أمامه ينهى بيده أمامه كي لا يرتطم بأغصان الشجر ... يهرب من كل شيء عدا الذكريات فهي التي تتساقط أمام عينيه مثل الأمطار ...

كفى ... كفى! ...

أريد أن أنسي ...

لماذا؟ ألا تكفي الهموم التي بداخلي ...

وبعد دقائق من الركض وصل أخيرا عند أقرب يابسة تطل على البحر الهائج من قوة الأمطار والهواء ...

ارتطم الهواء بجسده بشدة ولكنه لم يعبأ ...

جلس أمام البحر على رصيف أسمنتي يفرق بين اليابسة والبحر بضع خطوات.

جلس وأخذ ينظر إلى البحر بعدما امتزجت دموعه بمياه المطر التي بللته بأكمله ...

أخذ ينظر إلى البحر لدقائق ثم صاح في غضب قائلا، وكأنما يعاقبه:

- إلا ما تنظر أيها السفاح؟

صمت والغضب يظهر في عينيه، ثم صاح مجددا:

- نعم فأنت مثلى تماما ... بل أقبح منى ...

ثم أكمل بنفس النبرة:

- على الأقل لم أقتل الناس ثم أرسل جثثهم طافية على ... لم آخذهم غدرا ...

ثم صمت بعدما تذكر، وأخذت الدموع تتساقط، فقال منكسرا بصوت مبحوح من شدة الألم:

- بل أنا مثلك تماما ...

ثم بكى دون أن يعير أحدا اهتماما ، بكى تاركا الأحزان تطفو لعلها ترحل عن داخله ...

ثم صاح بكل قوته رافعا يديه إلى السماء ...

- يا رب ...

ثم مدد جسده على الرصيف واحتضن قدميه بصدره كوضع الطفل الصغير الخائف، وأغمض عينيه وأخذ يتذكر كل ما مضى، حينها توقف المطر وكأنما يريد أن يطمئنه وقلت قوة الرياح ومعها صوت اهتزاز الأشجار، فشرع في النوم ... والدموع مازالت على وجنتيه ...

*****

خرجت من المنزل مسرعة، تركض بكل قوتها على الأرض المبتلة، فاخذ الجميع ينظر إليها بغرابة، ولكنها لم تعبأ لنظراتهم، فكل ما كان يخيفها ... هو حبيبها ...

هو من عشقت الحياة بسببه ...

يوسف ...

أنهت الطريق ركضا حتى وصلت إلى الأشجار، كانت تتجه إلى البحر، لا تعلم أين هو ولا تعلم هل ستجده هناك ام لا ولكن هناك شيء بداخلها يأمرها بان تذهب إلى هناك، فالإنسان دوما عندما يري أكثر اهتماماته في خطر، يذهب وراء غريزته ... غريزة التضحية من اجل من تحب، ولكن عندما تحبه حقا! ...

أخذت تزيح بيديها الأغصان المتشابكة بين الأشجار والقلق يحتل قلبها، وتحاول أن تمسح بنظرها كل شيء أمامها بوضوح حتى تراه، ولكن بدون جدوى ...

زاد قلقها عندما ضعفت رؤيتها، شعرت وكأن الأغصان تلتف حولها، فقللت من سرعتها ولكن بدون فائدة ... حاولت النظر أسفل قدميها لترى أين تسير ولكن الأغصان تغطى ضوء القمر بأوراقها، شعرت وكأنها فريسة محاطة بمئات الأسود ...

توقفت عن السير وأخذت تلتفت حولها في خوف، ولكن بدون سبيل، شعرت بالتوتر عندما سمعت صوت الأشجار ترتطم ببعضها من بعيد وكأن هناك شيء قادم ...

اتكأت على ركبتيها في خوف وهي ترمق كل شيء حولها والدموع تتلألأ خوفا في عينيها ...

تذكرته عندما شعرت بالخوف، كم تمنت أن يكون معها الآن ليحميها ...

- من هناك؟

هدأت عندما سمعت صوته، صوته الذي ملأ كيانها يوما ما بكلمه " أحبك يا أميرتي "، نعم إنه صوت يوسف ...

صاحت بكل قوتها وخوفها قائله:

- أنا هنا يا يوسف .

وقفت سريعا وأخذت تبعد الأغصان التي أمامها محاولة السير تجاه صوت الخطوات، وعندما وصلت رأت ما لم تكن تريد أن تراه ...

رجل أربعيني بزي أسود كامل، وطاقية سوداء أجنبية وذقن وشارب يغطيان ملامح وجهه، ينظر إليها في تلذذ ثم قال:

- ريم!

نظرت له بعدما اختفى الأمل من عينيها، وعاد القلق والخوف مجددا، فتابع هو قائلا بنبرة هادئة:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟ ... ألا تعلمي أن هذه المنطقة ممنوع السير بها؟

رمقته في خوف، ثم قالت بارتجاف وهي تبتعد بضع خطوات للوراء:

- كنت أريد أن أصل إلى البحر سريعا ... فاضطررت أن اسلك هذا السبيل ...

ابتسم والشر ينبثق من عينيه، وقال في هدوء:

- عامة يوسف سيبيت عندي الليلة

وجهت نظرها إليه سريعا عندما سمعت الاسم، اطمأنت قليلا انه بخير ولكنها عادت للقلق ممن يتحدث، ثم قالت حانقة:

- إنك كاذب ...

ثم استدارت وشرعت بالمشي، فقال مرغبا:

- لقد كان في حالة يرثى لها فقررت أن أستضيفه عندي بسبب الأمطار والهواء القارص، ولكنه طلب مني طلبا غريبا ... لذا قررت أن أسير ورائك عندما رأيتك تتجهين ناحية الأشجار لأجعلك تقابليه وتحاولي أن ترجعيه عما قرر أن يفعل...

فردت قلقة منجذبة للحديث رغما عنها:

- ماذا قرر ...

فقال مبتذلا:

- أن يذهب إلى المجاورة الأخرى ...

أصابها الذهول عندما سمعت ما قال، أخذت تفكر لثوان وصورته الجميلة لم تفارق خيالها، كادت الوساوس تحطم عقلها من كثرة الأوامر بألا تذهب، ولكنها قررت ...

قررت التضحية ... من أجل من أحبت ...

فقالت بنبرة جدية:

- حسنا أين هو الآن ؟

فرد سعيدا بعدما وقعت الفريسة في الفخ ...

- إنه في بيتي ... ليس بعيدا عن هنا ...

فاستدار وسار بعدما تأكد أنها خلفه مباشرة ، وأخذ يتخيل ما سيحدث بابتسامة متلذذة ، ولا يجول في عقله سوي ...

"كم ستكون ليلة صعبة على يوسف "

****

"كم ستكون ليلة صعبة على يوسف "

قالتها الأم وما زالت دموعها لم تجف، ثم نظرت إلى أمير الذي يقف أمام الشرفة ويرمق الخارج في شرود حزين ...

فرفعت صوتها المنكسر قائلة:

- أستبقى شاردا طوال العمر؟

ثم قالت مستدركة:

- لقد خرجت الفتاة تبحث عن صديقك وستبقى أنت كأنما لم تفعل شيئا؟

أفاق من شروده عندما سمعها تحدثه، ثم نظر إليها وقال في لين:

- لم أعلم أنني بهذه القسوة...

نظرت له متعجبة لرده ثم قالت:

- لقد غيرك الجرح كثيرا..

فقال في حنق مما يشعر به:

- حاولت أن أتأقلم وأنساها ولكنني لم أستطع ... كانت تملأ وجداني ...

صمت للحظات ثم أردف قائلا:

- كانت هي كل حياتي ...

قاطعته قائلة بعنف:

- ولهذا قررت أن تفرغ كل ذخيرتك في يوسف المسكين ...

حاول أن يرد ولكنها أكملت بقوة:

- أتعلم عندما تنبأ يوسف بالحرب ... جاء لى وقال " أريد أن أتكلم أريد أن انطق بالحق. لا أريد أن أقف مشاهدا وكل شيء ينهار ولكنني أخشى أن يقتلوا كل عائلتي وأحبابي كما هددوني ".

ثم استطردت:

- كان يخاف عليك انت وريم ومنير ... كان يخاف على روز رحمها الله ...

سار بخطوات صغيرة ناحية الكرسي وهو يستمع إلى الحديث باهتمام، ثم جلس وقال:

- أريد أن أعلم كل القصة ...

ثم استدرك قائلا قبل أن ترد:

- أريد أن اعلمها منك أنت ...

لم تنظر له ولكنها تحركت من مكانها واتجهت ناحية غرفة يوسف، وبعد ثوان خرجت ومعها بضع ورقات ممتلئة بالكتابة ومكتوب في الصفحة الأولى " تنبؤ الحرب ... يوسف سعيد "

نظر للأوراق في ذهول، ثم وجه نظره إليها وقال مبتسما:

- ما هذا؟

ردت دون اهتمام له:

- إنها مذكراته

رفع حاجبيه في ذهول وقال:

- ولهذا السبب هددوه؟

أومأت برأسها أن نعم، ثم مدت يدها لتعطيه الأوراق، ثم قالت:

- في هذه الأوراق الثمانية ستجد كل الأجوبة عما يجول في عقلك

أخذ منها الأوراق في اهتمام وأخذ ينظر إلى الصفحة الأولى، ثم أخذ يتفحص الصفحة الأخيرة فوجد ...

" من أجل أمير وريم وروز وأمي ومنير ... فأنتم وطني وكل ما أملك" 0

رفع عينيه إليها، فوجدها تنظر إليه والغضب جليا في عينيها، فابتسم متأسفا عندما شعر بمدى الخطأ الذي ارتكبه ثم قال:

- سأقرأهم الآن ...

فاتجهت الأم دون رد إلى غرفتها الصغيرة وهي تنظر إلى الساعة في قلق ...

أخذ يتفحص الأوراق واللهفة للمعرفة تنتابه وهو يتابع كل تفاصيل الأوراق الصغيرة، ثم شرع بالقراءة ...

******

(2)

لعبة الشطرنج ... إنها جزء من الحرب ... عندما تفكر في أولى الخطوات لأنك تعلم أنها ستحدد مصير اللعبة ... ثم تشتد المعركة عندما ترى العساكر تتساقط ويداهم الخطر أحد سادة الصف الثاني ... عندها فقط سيتدفق الأدرنالين بجميع عروقك وترتجف قدمك توترا ... حينها سترى بعين الخوف كل شيء ... سترى الثغرة الوحيدة في الخطة المحكمة ... ووقتها سترفع راية الانتصار مهزوما! ...

****

اخذ يتفحص الأوراق واللهفة للمعرفة تنتابه وهو يتابع كل تفاصيل الأوراق الصغيرة، ثم شرع بالقراءة ...

****

الصفحة الثانية ...

لم أكن أعلم أبدا أن العالم صغير إلى هذا الحد، وان عقل الإنسان محدود إلى هذه الدرجة ...

الحرب العالمية الثالثة ...

ما أكتبه الآن وما ستقرأه يوما ...

هو مزيج بين فكر وبحث قد توصلت إليه، أعلم أنك الآن تضحك وتسخر وتسب ولكن الأمر ليس هينا ...

هل قرأت يوما كتاب عن هتلر؟

هتلر وباختصار تام هو إنسان أدمن المخدرات وأراد غزو العالم ليرفع هيبة ألمانيا، وليحترمها كل مخلوق على وجه الكرة الأرضية ...

معتوه ...

هل قرأت يوما كتاب عن علم النفس ؟

هل تعلم غريزة الإنسان في التملك ؟

الإنسان بطبعه يعشق التملك ، حتى لو لم يصلح للقيادة وإنما فقط التملك يشعره بالقوة ... كما يعشق الطمع...

معتوه أيضا ...

تعلمت يوما أن المعادلات الرياضية أصل كل شيء ... وهي حجر الأساس لكل العلوم ... وأن بخطوات بسيطة تستطيع حل المعادلة وإيجاد الناتج ...

هل تعلم أن لكل شيء سبب؟ ... هناك أسباب نستطيع معرفتها ... وأسباب لم نتوصل لها بعد ... ولكن لكل شيء سبب ... وهنيئا لمن توصل ...

مرحبا بك في مذكراتي ...

يوسف سعيد ...

****

شعرها الأسود الداكن الذي يتطاير مع كل نسمة هواء باردة تمر عليها، ومقاومتها للنسيم يجعلها في مشهد ملائكي يجبر من يراها على الاتكاء أمامها والاعتراف بحبه لها! ...

سارت وهي تفكر فيه، لم تكن تملك سوي الأمل في أن تجده، لم تجد سببا إلاه لتذهب إلى منزل الرجل ...

الرجل الذي تخشاه جميع فتيات المجاورة ...

سيد رضا ... رجل أربعيني عريض المنكبين وذو وجه قبيح ... معظم ملابسه يظهر عليها الطابع الإنجليزي؛ فهو يعمل معهم جاسوسا، يأتي لهم بكل ما يريدوه من أساليب المتعة ...

حاولت أن تمنع نفسها كثيرا أثناء السير ولكن صورته تجتاح خيالها كلما هدأت في السير ...

ماذا تفعل؟ ... إنه الحب ... ومن الحب ما قتل!

التفت وراءه ليطمئن أنها تسير خلفه، ظل يرمقها في كل دقيقة مرة حتى شعرت بالقلق، ثم قالت بصوت خفيض:

- أين هو؟

فرد في برود محاولا أن يتحكم بزمام تفكيرها:

- بعد هذه الشجرة الكبيرة التي أمامنا.

ثم أشار باتجاه شجرة كبيرة أمامهم ببضعة أمتار، فنظرت إلى الشجرة ثم قالت والتردد يتملكها:

- وهل هو هناك حقا؟

فابتسم الرجل عن دون قصد ثم قال مطمئنا بصوت بارد كالثلج ليقطع كل خطوط التفكير الخاطئ:

- ها هو أمامنا

ثم أشار بيديه مرة أخرى، فنظرت سريعا إلى المكان، ولكنها ولصعوبة الرؤية من بعيد – خاصة وسط الأشجار الكثيفة — لم تره ... فسألت مجددا في أمل:

- أين هو؟

فأبطأ الرجل من سيره ثم قال:

- إنه يجلس في الكوخ الذي أمامك هناك.

ثم استطرد قائلا:

- اذهبي هيا وسأترككما وحدكما لبعض الوقت ...

فنظرت له مبتسمة فوجدته هو الآخر مبتسما، فنظرت إلى الكوخ الذي يبعد بضعة أمتار في قلق لما يدور في رأسها. ثم أنهت كل المخاوف الجائلة في عقلها وقالت بصوت به شيء من القوة:

- حسنا سأذهب إليه ...

وقف هو، فسارت هي بخطوات سريعة تجاه الكوخ وكل ما تريده هو يوسف ...

******

وضع الاوراق على الطاولة الخشبية بجانب كرسيه، ثم اتجه مجددا إلى الشرفة، ووقف أمامها وشرد فيما قرأ ...

لا تظهر ملامحه شيئا من فرط ذهوله مما قرأ ...

لم يكن يعلم أن يوسف توقع كل شيء بحق، لم يكن يعلم كل تلك التفاصيل ...

أخذ يتذكر عندما أطلقت أول رصاصة في ميدان الحرب ... عندما أعلنوا غضب الدول علينا ... عندما شعروا بضعفنا وقرروا إزالتنا من الخارطة ...

كانا جالسين أمام المدفئة يحتضنها بقوة وينظر إلى عينيها الواسعتين البنيتين ... ليتوه فيهما ...

ينظر إليها ف لين ويداعب خصلات شعرها وهي تنظر إليه باسمة ، وتحرك يديها فوق رأسه لتحنو عليه ... ثم يقبلها ...

وقتها سمع صوت الناس وهم يهربون ... سمع صوتهم الخائف المرتجف الذي يطيح بأساس الأمان داخل قلبك ... لينهار كل شيء ويرقص الخوف فوق الأنقاض ...

حينها شعر وهي بين يديه أنه يفقدها، عندما وجد الخوف ممتزجا بالقلق في عينيها ناظرة إليه مرتعبة ...

حينها فقط شعر أنه يخسر كل شيء ...

عندما تركها وخرج سريعا إلى الخارج ليرى ماذا يحدث ...

عندما قابل يوسف أمام منزله المقابل لمنزله ليقول له اختبئ فلقد ضربنا إعصار الموت ...

انتبه عليها ... فهي كل ما لديك ...

ولما نظر لينتبه، لم ينتبه أن المنزل مدمر تقريبا، فلقد سقط عليه غضب الحرب فدمره ...

ودمر كل حياته معها ...

وأصبح وحيدا ...

" لقد تأخر يوسف وريم، يجب أن تذهب لتجدهما. "

قالتها الأم لتخرجه من شروده الحزين، ولتجعله يفيق للواقع قليلا ...

فنظر اليها ودموعه تنساب على وجنتيه، فنظرت له الام بلين ثم اقتربت منه لتحنو عليه وربتت على كتفه قائلة:

- من مات قد مات ... اتركها جانبا وعش فالحياة لا تقف على أحد مطلقا ... ها أنا أمامك فقدت ابنا وزوجا ولكنني أعيش من أجل يوسف وريم ...

ثم قالت مستدركة:

- ومن أجلك أيضا.

فنظر إليها نظرة لن يفهمها سواها، نظرة عرفتها من يوسف عندما علم بفقد أخيه، عندما ذهب ظهره ويديه اليمنى في الحياة، وعلم أنه أصبح وحيدا، وعلم أنه سيواجه كل شيء بمفرده...

مسح دموعه سريعا، عندما استوعب حديثها فابتسم من خلف الدموع وقال بصوت خفيض:

- سأذهب لأبحث عنهما يا أمي

ثم اتجه ناحية الباب وخرج من المنزل ماسحا الدموع التي على وجنتيه ...

****

أصبحت أمام الكوخ تماما، نظرت إليه بشدة وقلق، ولكن كل مخاوفها رحلت عندما وجدت المصباح مضاء والنور يتسلل للخارج من عقب الباب، ابتسمت فتقدمت ناحيته بخطوات ثابتة ...

دخلت والابتسامة الآملة على شفتيها تزين وجهها المضيء، بعدما فتحت الباب بهدوء، نظرت للداخل فوجدت شخص جالس على كرسي يعطى ظهره إليها، عقدت حاجبيها عندما لاحظت انه ليس يوسف ...

قالت بصوت مبحوح ضعيف بعدما شعرت بالخوف:

- يوسف؟

استدار بهدوء ولكنه لم يكن هو، كان جنديا أجنبيا يلبس زيا عسكريا بشعر أصفر داكن وملامح محددة يعرف بها الأجنبي ...

نظرت له بخوف عندما شعرت بأنها وقعت فريسة وجاء وقت التهامها بنهم، فنظر لها الجندي وقال:

- لا تخافي سيمر كل شيء بهدوء طالما لم تقاومي.

ثم شرع بالاقتراب منها، فحاولت ان تبتعد والدموع قد بدأت بالسقوط خوفا مما سيحدث، استدارت سريعا وفتحت الباب، ولكنها وجدت سيد رضا يقف خارجا ويقول مبتسما:

- لا تقلقي فجون غير ضار ...

بكت بحرقة عندما شعرت بالغضب، ثم نظرت له باحتقار وضربته بيدها على وجهه بكل قوتها ثم بصقت في وجهه وقالت بصوت مبحوح من كثرة الألم والخوف والقلق:

- أنت حيوان.

أغمض عينيه مبتسما ماسحا وجهه ثم قال في حنق مما فعلت:

- رد فعل جريء ... ولا يفل الجراءة إلا الوقاحة ...

ثم وبكل قوته لطمها على وجهها فارتطمت بالباب الخشبي الصلب وسقطت أرضا تضع يديها على وجهها وتتأوه من شدة الألم ناظرة إليه مرتعبة ...

ابتسم ابتسامة وقحة ثم قال باقتضاب:

- لقد قال لك ألا تقاومي ولكنك تحبين العنف

ثم نظر إلى جون الذي كان ينظر إليها متلذذا مبتسما يفكر كيف سيلتهم تلك الفريسة الجميلة ... فقال سيد رافعا صوته:

- والآن سأتركك معها يا جون أريدك أن تتمتع وفى النهاية خذها معك للوحدة ...

ثم أردف قائلا:

- سأترككما سويا لبعض الوقت.

ثم غادر الكوخ بعدما أغلق الباب بأحكام من الخارج، وبعد لحظات اتجه جون إلى المنضدة التي عليها بعض المقبلات وزجاجة خمر كبيرة وكأسان، ثم أمسك بالكأسين واتجه ناحيتها بعدما ملأهما، واتكأ على ركبتيه ومد يديه بكأس لها وقال ببرود:

- تفضلي.

نظرت له والدموع ما زالت على وجنتيها لم تنضب بعد نظرة غاضبة مما ينوي أن يفعل وكأنها ستواجه ما سيحدث بتلك النظرة ...

فوضع الكأس على الأرض بجانبها مبتسما ثم قال:

- ما اسمك؟

ظلت ناظرة إليه بنفس النظرة ولم يرمش لها جفن، فجز على شفتيه في ضيق من صمتها ثم قال بغضب:

- أريدك أن تتكلمي ليكون الأمر جميلا فأنا لا أحب العنف أبدا.

ثم مد يديه ليعدل لها شعرها الأسود اللامع، فابتعدت عنه بقوة وهي تقول برغم الغصة في حلقها من كثرة البكاء والخوف:

- ابتعد عنى أرجوك.

اخرج زفيره بقوة بعدما مل اللين، ثم وبكل قوته ضربها على وجهها مرة أخرى، فبصقت بعض الدماء من قوة الضربة

وتأوهت مرة أخرى من شدة الألم، ثم قال:

- إذا العنف هو الحل ...

****

خرج إلى الشارع وأخذ ينظر في كل الطرق بين المارة ليجدهما ولكنه لم يعثر على ملامحهما ...

ولكنه وجد كهلا جالسا على رصيف الطريق يدفئ نفسه بقطع من القماش المقطع فوقف أمامه وسأله قائلا:

- أرأيت أحدا يمر من هنا يا عم إسماعيل؟

نظر له الكهل بغرابة ثم قال:

- أتملك غطاء لي؟

فنظر له أمير بحنق ثم قال:

- لا..

فقال الرجل بعدما وجه نظرة إلى الطريق:

- لهذا هزمنا في الحرب ... كل شخص منا يملك شيئا زائدا ولا يريد ان يتصدق به لفقير ... فتخلل الفقر والبرد والجوع داخلنا حتى ولد الحقد والحسد والكره فأصبحنا أمة ضعيفة ...

فأخرج أمير زفيره غاضبا ثم قال بنفس النبرة:

- ولكنني أملك سجائر.

فقال الكهل بعدما انجذب للكلمة:

- حسنا أعطني واحدة.

فأخرج أمير سيجارة وأعطاها الى الكهل الذي أخذها سريعا وأخذ يرمقها بعشق كالطفل الصغير الممسك بلعبته التي تمناها ...

ثم قال أمير في ضيق:

- هل رأيت أحدا يمر من هنا؟

فقال الكهل مبتسما:

- لقد خرج يوسف منذ ساعات باتجاه الأشجار هناك، ومن بعده بدقائق خرجت ريم ولحقها سيد رضا، وها أنت ذا ستلحق بهم ...

فابتسم أمير بعدما سمع الكهل ثم مال عليه وهمس في أذنيه قائلا:

- أتعلم لماذا هزمنا في الحرب ... لأننا منافقون ! ولأننا جعلنا المبادلة بأي شيء نظير افادتنا في جميع مواقف حياتنا الصغيرة منها والكبيرة يا عم إسماعيل...

ثم تحرك باتجاه الأشجار ...

وأمسك عم إسماعيل بالسيجارة واخذ يشعلها ويسترق منها بضع أنفاس وهو ينظر يمينا ويسارا كي لا يراه أحد من المارة ...

******

شرعت الأمطار بالهبوط ولكنها كانت أقوى ...

كانت تريده أن يفيق مما فيه، أرادته أن يكون يقظا لما يحدث دون علمه ...

ومع أول نسمة هواء باردة وارتطام أول موجة بالصخر وتطاير بعض قطرات الماء الذي يزيد من برودة النسمات وارتطامها بجسده الملتف حول نفسه يحاول أن يشعر ذاته بالأمان ... استيقظ ...

فتح عينيه عندما ارتجف جسده من البرد، تحرك من مكانه وأخذ ينظر إلى قطرات المطر وهي تتساقط على سطح البحر لتظهر مشهدا يسر الناظر ... وكأن الأمطار تغسل أحزان كل شيء لتسقط في البحر وتزيد من ماءه فيعلو موجه ويتخلص من جميع الأحزان التي أفرغها فيه الحزانى على شطآنه ... فالمطر والبحر شبيهان إذا تجمعا تصير الأحزان وهم ...

تحرك من موضعه ثم وقف وفتح يديه بطولهما يمينا ويسارا وأخذ ينظر إلى السماء، ثم أغمض عينيه، وقال:

- لتغسلي أحزاني وتطهريني ...

ثم سكن لدقائق، وبعدها ابتسم. وقال:

- ها أنت تعود كما كنت، لقد طهرنا المطر سويا، إلى لقاء قادم يا صديقي.

ثم استدار وصوب نظره إلى اليابسة وابتسم ثم سار باتجاه بيته سريعا ...

****

أخذ يزيح بيديه أغصان الأشجار التي تعيق ركضه ونظره، يبحث في الطريق عنهما بعدما زاد قلقه عندما سمع اسم سيد رضا، فهو يكره هذا الاسم بالتحديد، تحول قلقه إلى غضب دفين فلقد تذكر كل شيء مرة أخرى ...

أخذ يبحث بعينيه ويرمق كل التفاصيل التي حوله، حتى سمع صوت سيارة تسير على الطريق جانب الأشجار، فركض سريعا تجاه الصوت ولكنه لم يلحقها فقط شاهدها من بعيد ...

سيارة حربية صغيرة يستخدمها العدو للسير بجانب سور المجاورة من الخارج ليدرس نقاط ضعفه، كانت السيارة تتجه ناحية البوابة الكبيرة في أول المجاورة، ظل رامقا إياها بشدة ولكنه لم يشاهد من بها ، فوقف على الطريق ناظرا إلى العلامات التي تركتها الإطارات على الطريق بسبب الطين والأمطار ... فحمد ربه على الأمطار ...

أخذ يسير في الاتجاه المخالف لسير السيارة ليجد بداية سيرها ...

وبعد دقائق من السير انتهت العلامات في الجانب الآخر من الكوخ الذي يطل على الطريق، نظر إلى الكوخ بتمعن فوجد المصباح مازال مضيئا ...

ركض سريعا بعدما انتابه القلق مما جاء في فكرة، أخذ يركض باتجاه الكوخ وهو يذكر الاسم بصوت خفيض ...

" روز "

" روز "

حتى وصل إلى الكوخ وفتح الباب سريعا ثم صاح قائلا:

- روز!

ولكنه لم يجد شيئا سوي مصباح مضيء وزجاجة خمر فارغة وكأسين أحدهما مملوء والأخر فارغ تماما وقطعة قماش سوداء مقطعة الأطراف، فاقترب من قطعة القماش وأمسكها بيده واخذ يتفحصها بدقة، حتى عرف أنها لها ...

زاد قلقه عليها، فوجودها هنا لا يعنى إلا شيئا واحدا أن سيد رضا قد سلمها ...

خرج من الكوخ سريعا والغضب ينبثق من عينيه، كان يفكر فيها ...

يفكر فيما حدث لها ... يفكر في يوسف ... كان يفكر في كل شيء ...

ركض باتجاه الميدان مرة أخرى وسلك الطريق الذي يؤدى إلى القهوة التي يتجمع عليها رجال المجاورة، ولكنه لم يجد أحدا!

ثم تذكر أمرا ، أنه عندما تفرغ القهوة هذا لا يعنى إلا أمرا واحدا فقط، أن هناك غارة على الأبواب ...

وبعدها بلحظات ... سمع صوت الطائرات القادمة من بعيد، وصوت شخص يناديه من زقاق صغير بجانب القهوة يقول:

- اختبئ الآن يا أمير.

نظر أمير إلى الزقاق في غرابة ثم قال:

- عزت؟

فرد الصوت:

- نعم هيا تعال لتختبئ.

فاقترب صوت الطائرات أكثر، فشعر أمير بالخوف من الوحوش القادمة، فركض سريعا ودخل الزقاق ...

فقال عزت بصوت خفيض:

- اليوم هو يوم الانتفاضة.

فنظر له أمير متسائلا، فتابع عزت قائلا:

- سنسقط طائرة ....

******

ركض يوسف باتجاه الطريق، ولكنه أبطأ حركته عندما سمع صوت الطائرات القادمة من بعيد، فتذكر من بالبيت، فأسرع مرة أخرى ليصل قبل قدومهم ...

وعندما أنهي الأشجار ووصل إلى اول الطريق قد وصلت الطائرات إلى سماء المجاورة، أربع طائرات صفو وراء بعضهم يبحثون عن أي ضوء ليسقطوا صواريخهم ويدمروه ...

وبعد لحظات قليلة اندفع صاروخ من فوق أحد المنازل، وبسرعة رهيبة اصطدم بأولى الطائرات فانحرفت عن مسارها بعدما تهشمت مؤخرتها ولاحت تتحرك حركات بهلوانية في السماء حتى سقطت وسط الأشجار ...

ولم تلبث الطائرات الأخرى حتى شرعت في إطلاق الصواريخ بشكل متناثر كرد على الهزيمة ومحاولة السيطرة على الكافة المنتصرة دائما ...

ابتسم يوسف عندما رأي الطائرة وهي تشتعل وسط الأشجار من خلفه، ولكن انتابه الرعب عندما سقطت الصواريخ في الطريق وأخذت تدمر كل شيء وتقتلع الأرض من مكانها ...

ركض دون الالتفات للصواريخ، ركض باتجاه منزله، لم يعبأ بالصواريخ أو الخوف من الموت، كان يعبأ فقط بأمه وريم وأمير ...

ركض على الطريق وسط النيران والصراخ، حتى سقط صاروخ على المنزل المجاور لمنزله، فهدمه في أقل من ثوان، فوضع يديه على وجهه محاولا الحماية ولكن قوة الانفجار حركته بضع خطوات للوراء، ولكنه بعد أن هدأ وابتعدت الطائرات عن سماء المجاورة لتستدير وتعيد الغارة ، ركض سريعا حتى وصل إلى المنزل ...

ضرب الباب بقدمه ففتحه بقوة ، فوجد أمه تختبئ داخل غرفتها تبكي، فدخل عليها سريعا والقلق يملئ وجدانه، وبحركة لا إرادية احتضنها باكيا، فبكت في أحضانه كالطفلة الصغيرة الخائفة على والدها ...

ربت على كتفها وقال:

- أنا هنا الآن لا تخافي.

شعرت بالغصة في صدرها من كثرة البكاء، فربت على كتفها وقال:

- اهدئي يا أمي فأنا بين أحضانك الآن.

ثم استدرك قائلا:

- فقط تشبثي فتبقت غارة أخرى ...

فأمسكت بذراعيه بقوة وهي بين أحضانه عندما سمعت صوت الطائرات عائدا، فأخذ يحتضنها بقوة ليحميها ...

ثم تذكرها فجأة فشعر بالقلق مجددا، ثم قال:

- أين ريم؟

فأومأت الأم برأسها أن لا، ففهم أنها لم تعد حتى الآن، فشعر بالخوف عليها ...

فحاول أن يبتعد عن أمه ولكنها تشبثت به بقوة حتى لا يتركها ، فظل ماسكا إياها حتى ابتعدت الطائرات بدون إسقاط أية صواريخ...

******

- ألم ترى ريم؟

قالها أمير لعزت وهما يهمان بالخروج من الزقاق بهدوء، فرد عزت قائلا:

- لا لم أرها.

فسأل أمير في قلق:

- هل رأيت سيد رضا؟

فرفع عزت حاجبه عندما بدأ بالفهم، ثم قال:

- لا لم أره ... ولكنك تعلم أنه جاسوسهم ويستطيع الخروج من البوابة في أي لحظة يريدها دون أن يتعرض له أحد ...

قاطع حديثهما خروج الناس من الأزقة والبيوت بحذر وخوف من الطائرات وبعد لحظات شرع الجميع بالتهليل لما فعلته جماعة المقاومة وانتصارهم على العدو – بدون حتى أن يتحرروا –ثم اتجه الجميع تجاه الطائرة المشتعلة وروح الانتصار تمتلكهم ...

نظر عزت المنتصر إلى أمير الذي كان يبحث بين الجموع عن شيء ولكنه لا يجده، ثم قال:

- ما رأيك في أن نذهب لنرى الطائرة؟

فلم يرد أمير، ولكنه تحرك سريعا عندما وجد عم إسماعيل يشير له من بعيد ...

سار أمير بين الجموع المبتسمة والغضب يتملكه حتى وصل إلى عم إسماعيل، فمد إسماعيل يده طالبا سيجارة، فسرعان ما أخرج أمير له واحدة ثم صاح قائلا في غضب:

- أين سيد رضا ؟

فرد إسماعيل قائلا وممسكا بالسيجارة:

- رأيته يركض نحو الأشجار أثناء الغارة ... لماذا تبح...

فقاطعه أمير قائلا في حنق:

- ليس لك دخل في ذلك.

ثم ركض أمير تجاه الأشجار بكل قوته ...

****

أخذ يوسف يتنفس الصعداء بعدما انتهى القصف ، وظلت الأم ممسكة بزراعيه مغمضة العينين خائفة ، فربت على كتفها في لين وقال:

- انتهى كل شيء ويجب أن أبحث عنها.

فنظرت الأم إلى عيني يوسف الحزمة فشعرت بقليل من الأمان، فأومأت برأسها أن نعم ثم تركته، فنظر لها بلين وقال:

- سأعود قريبا ...

ثم تحرك بخطوات سريعة إلى خارج المنزل، وأخذت الأم تحمد ربها على النجاة ماسحة دموعها ...

وعندما خرج وجد أمير يركض بكل قوته تجاه الأشجار، فصاح بكل ما فيه يناديه ولكن بدون فائدة، فقرر اللحاق به...

******

مازال يركض بكل عزمه ليصل إلى سيد رضا، سمع صوتا يناديه بقوة ولكنه لم يعبأ به، كل ما في خياله هو " روز " ...

ظل يزيح بيديه أغصان الأشجار التي لم تعد متشابكة بقوة بعدما سقطت الطائرة وكأنها سعيدة بسبب الانتصار ...

سمع صوت يناديه مرة أخرى ولكنه لم يعبأ مجددا، حتى وصل إلى كوخ سيد رضا ...

ضرب الباب بقوة ففتحه، فوجده يجمع ملابسه وأشياءه في حقيبة صغيرة وكأنه ينوى الرحيل، فقال له أمير في ضيق:

- إلى أين تخطط للذهاب؟

فبلع سيد ريقه في خوف من طريقة دخول أمير ونبرة حديثه ثم ابتسم في قلق وقال:

- قررت الانتقال إلى المجاورة الأخرى، فكما تعلم دولتنا أصبحت مجاورتين هذه وأنت تعلم حالها يركز عليها العدو ليحتلها لأنها الأقوى ومن بعدها سيدمر الأخرى، وأنت تعلم أنني لدى الكثير من الأصدقاء خارج السور سينقلونني إل...

فقاطعه أمير قائلا بنفس نبرة الحنق:

- أين ريم؟

فنظر له سيد في استنكار ثم قال:

- ريم! ... لم أرها اليوم.

فنظر له أمير والشر يظهر من عينيه، وقال في ضيق من مراوغته:

- أين هي ؟

فرد سريعا في خوف:

- لا أعلم يا بني.

فنظر أمير أسفل قدمه عندما وجد قطعه من الخشب السميك قد كسرت من الباب عند دخوله فأمسك بها وتحرك بضع خطوات يسارا ليمسك بقطعه القماش السوداء، ثم قال:

- لمن هذه القماشة ؟

رمق سيد العصا الخشبية في خوف، ثم ترك الحقيبة وابتعد بضع خطوات عنها متجها إلى زاوية الكوخ ، وقال مرتعبا:

- لا أعلم فهذه المرة الأولى التي أشاهدها فيها.

فجز أمير علي شفتيه غاضبا ثم ألقى بقطعة القماش ارضا وقال بصوت به شيء من البرود:

- أتعلم عندما حاولت التعدي على روز، علمت بعدها بشهور منها، ولكنها أرادت ألا أمسسك لأنها لا تحب المشكلات.

ثم صمت قائلا ليستعيد غضبه بعدما لان بتذكرها ثم قال:

- والآن لقد تعديت على ريم.

ثم اقترب منه ببطء وهو يقول:

- والآن قد مات اللين بقلبي، ولن ادعك تعيش بعد الآن.

ثم رفع العصا وبكل قوته أسقطها على يد سيد الذي رفعها ليحمى بها رأسه، فكسرها وجرحها وأخذت الدماء تسيل منها بغزارة ...

وكأن الدماء قد وجدت سبيلا للهرب من جسد فاسد لتبحث عن الطهارة بين ثنايا الأرض...

فصرخ سيد في ألم، ثم صاح قائلا في تأوه:

- لا أعلم أين هي.

فرفع العصا مرة أخرى وأسقطها على قدمه اليمنى بعدما حاول سيد الهرب تجاه الباب، فسقط من قوة الضربة أرضا يتأوه ...

فألقى أمير العصا وامسك بقطعة القماش، وهبط فوقه على الأرض وامسكه بيده اليسرى من رقبته وقال هامسا في أذنه:

- أين هي؟

فقال سيد مستسلما:

- لقد سلمتها إلى الجنود عند البوابة وأخذوها معهم ...

فأغمض أمير عينيه للحظات عندما سمعه، ثم أخرج زفيره غاضبا وأكمل بحنق:

- أتري هذه القماشة؟

ثم أكمل قائلا بعدما استعاد قوته وغضبه:

- إنها لريم أيها الجاسوس ... وستموت بها.

ففتح سيد عينيه في ذهول مما قال وحاول المقاومة، ولكن أمير قد وضع ركبته اليمنى على صدره ليثبته ثم أمسك القماشة بيديه ووضعها على انفه وفمه ... ثم قال بقوة وهو يثبته حتى يموت:

- سيرحل سيئ بيدي فقد مللت ذهاب الطيبين عنا.

ثم أكمل بعدما أحكم قبضته عليه، وشعر بأن سيد يفقد أنفاسه:

- سيرتاح العالم من أنفاس منافق مثلك

ثم أردف قائلا هامسا في أذنيه بصوت بارد كالثلج:

- نفس يخرج ونفس يحبس ... وفى الأخير ستموت ... رحلت روز الطيبة وبقيت أنت وأمثالك في الحياة ... أرأيت كم يغضب الأمر؟ ...

ثم أكمل بعدما قلت مقاومة سيد تدريجيا بعدما انقطع نفسه تقريبا:

- إلى اللقاء ...

لم يتركه حتى سقطت يداه أرضا بجانبه، وظلت عيناه مفتوحة لا ترمش ... فلقد رحل ...

ابتعد عنه أمير وسند ظهره إلى الطاولة ثم ضربه بقدمه وقال:

- لقد أنهيت انتقامي.

ثم شرع في البكاء وهو يتذكرها مبتسما ويقول:

- لقد قتلت من حاول إيذائك يوما يا حبيبتي.

فقاطعه نداء يوسف من الخارج وهو يقول:

- هل أنت هنا يا أمير؟

فمسح أمير دموعه دون رد، فدخل يوسف الكوخ مذهولا من مظهر أمير الجالس أرضا وأمامه جثة سيد رضا وتخرج الدماء بغزارة من يده ...

فنظر إلى أمير بقلق ثم قال:

- هل قتل...

فرد أمير مقاطعا إياه قائلا:

- نعم لقد قتلته يا صديقي.

فنظر له يوسف متسائلا فرد أمير:

- لقد سلمها إلى العدو.

ظل صامتا لثوان عندما سمع ردا لسؤاله عنها، فسأل متمنيا أن تكون الإجابة لا:

- من؟

فرد أمير قاطعا لكل الشكوك:

- لقد سلم ريم للعدو يا يوسف ... وعندما علمت قتلته ...

شعر يوسف بالقلق بعد ما سمع ولكنه مازال غير مصدق فقال:

- كيف عرفت؟

فمد أمير يده ليوسف ليعطيه قطعة القماش السوداء المقطوعة من ردائها ثم قال:

- إنها من ردائها.

أمسك يوسف سريعا قطعة القماش وأخذ يتفحصها ثم شمها، فعرف أنها لها، فهو يميز رائحة عطرها من بين جميع الروائح ...

ثم أضاف أمير بنفس النبرة:

- وقد اعترف لي قبل أن اقتله.

ظل الصمت محتلا للكوخ بعدما عرف يوسف كل شيء، كان ممسكا لقطعة القماش ويضعها على أنفه مغمض العينين يفكر بها، ثم انتابه الغضب فجأة فأخرج مسدسه الصغير ووجهه صوب رأس سيد وأطلق الرصاصة ...

ثم وضع المسدس بجانبه ووضع قطعه القماش في جيبه وحمل الجثة على كتفه بصعوبة ثم قال موجها حديثه لأمير:

- هيا بنا إلى الميدان ...

فنظر أمير إلى عيني يوسف الحازمتين ثم وقف مكانه وقال:

- هيا بنا إلى الميدان ...

*****

الميدان قبل الفجر بسويعات قليلة ...

احتشد الجميع احتفالا بالانتصار وسقوط طائرة من طائرات العدو ، أخذوا يرفعون مهللين أشلائها ويتوسطهم عزت وجماعته، يقفون أمام تمثال الميدان الصغير ويهتفون فيهم ويزيدوا من روحهم المعنوية للمقاومة والانتصار على الحصار ...

ثم صمت عزت فجأة عندما أشار له واحد من أتباعه إلى الاثنين القادمين من بعيد ويتجهان ناحية الحشد، رمقهم عزت بذهول عندما وجد يوسف يحمل شخصا على كتفه، ولكنه بعدما تذكر حديثه مع أمير في الزقاق ورأي يوسف يسير بجانبه عرف أن الجثة لشخص يعرفه ...

اقترب الاثنان من الحشد، فنظر لهما الجميع بغرابة ثم أفسحوا لهما الطريق ليصلا إلى رصيف التمثال الذي يقف عليه عزت أعوانه ...

وقف الاثنان بجانب عزت ثم ألقى يوسف بجثة سيد أرضا وسط الجمع، ثم صاح أمير قائلا:

- ها هو الجاسوس، ها هو كبير المنافقين هنا ...

ثم نظر إلى يوسف الشارد في الجثة، فاستعاد قوته وقال في صياح:

- لقد سلم إحداهن إلى العدو ليتمتعوا بها ...

ثم استدرك قائلا عندما شعر بغرابة نظرتهم :

- لقد سلم ريم عثمان إلى العدو ... فانتقمت أنا ويوسف منه ... والآن وقت الانتقام منهم جميعا ...

ثم قاطعه يوسف قائلا والدموع تتلألأ في عينيه:

- لقد نظفنا أنفسنا الآن وقتلنا المنافق من بين صفوفنا ... ومن اليوم أعلن نفسي واحد من جماعة عزت وواحد ممن سيخلص هذه المجاورة من محاولات العدو في الاحتلال ... تتذكرون جميعا عندما كنا ست مجاورات ... سقطنا وتحولنا إلى مجاورتين فقط في أقل من عام بسبب الضعف والخوف والخيانة بين صفوفنا ...

ثم صمت لوهلة وقال:

- أخي منير يوما ما كان قائد لجماعة المقاومة ولم يستطع العدو بسبب تخطيطه احتلال المجاورة ... ضحى بنفسه على أعتاب دخولهم ليمنعهم من الدخول ... ولهذا جئت اليوم لأقف مكانه ...

ثم استطرد قائلا بعدما أخذه الحماس:

- لأضحى بنفسي من أجل حريتكم فلقد ذهب عزيز لي قديما ورحلت أخرى الآن ولن أقف مكتوف الأيدي حتى يرحل من تبقى لي ...

ثم صمت ...

بعدما أشعل الميدان نيران حماسية ...

بعدما جعل الجميع يشعرون بالأمان والقوة ...

بعدما صاحوا جميعا باسم جماعة المقاومة ...

وباسمه ...

******

يوم 3/15 من نفس العام ...

قبل أسبوع من فصل الربيع ...

الساعة الحادية عشر مساء ...

في سيارة قديمة يقودها أمير وبجانبه عزت وفى المؤخرة يوسف يجلس بجانب والدته ...

نظر يوسف إلى أمه مبتسما وقال:

- ها هو حلمك يتحقق يا أماه

ابتسمت الأم بعرض وجهها ثم قالت والسعادة تملأ عينيها:

- أردت فقط أن أراك أمن معي في مكان ليس به حرب وقتل.

فرد عزت قائلا:

- بعد ساعات قليلة ستكونان في المجاورة الثانية.

فنظر يوسف إلى أمير الذي يقود السيارة شاردا ثم قال وهو يلكزه في كتفه:

- ألن تأتى معنا يا أمير ؟

فرد أمير بعدما أفاق من شروده :

- سآتي لكما في بداية فصل الصيف، فالعدو لا يطيق المكوث في الحر أبدا

فابتسم كل من في السيارة، فأردف أمير قائلا:

- ولكن عدني ...

فنظر له يوسف من المرآة متسائلا، فرمقه أمير ثم قال مجيبا:

- أن تجد ريم..

فنظر له يوسف في عينيه نظرة لا يفهمها سواهما ثم قال:

- أعدك يا صديقي..

ثم أدار يوسف وجهه عن المرآة واخذ ينظر إلى الطريق، ويرمق عمدان الإنارة التي تمرق سريعا لتشكل خطا من الضوء فيتذكرها...

شعر أنه يشاهد صورتها أمامه ... تبتسم له وتطمئنه أنها بخير ...

فمرت السيارة بداخل نفق على الطريق يؤدى إلى طريق آخر فاختفت المصابيح لثوان ، فشعر بالضيق لاختفاء صورتها التي كان يشاهدها ... لم يلحق أن يأخذ قبسا من نور وجهها بخياله، فلم يشاهدها منذ زمن ...

شعر وكأنها رحلت عنه، فزاد القلق والحزن لفقدانها أكثر ...

حتى خرجت السيارة إلى الطريق مجددا ، فرآها مرة أخرى. فابتسم ... فابتسمت ...

وبعد مرور دقائق ...

أوقف أمير السيارة في مكان مهجور مظلم، بعدما أشار له عزت بالوقوف هناك، نزلوا جميعا من السيارة ، وأمسكت الأم بيد يوسف الذي يتفحص المكان قلقا، وسبقه أمير الذي جذع عندما سمع صوت ذئب بعيد عنهم فوضع يده على المسدس بجانبه سريعا، فأشار له عزت أن لا فأبعد يديه ...

وبعد السير لمدة دقائق في الظلام وصلوا أخيرا لبوابة حديدية على الأرض مغلقة بقفل كبير ...

أخرج عزت مفاتيحه واتكأ ليفتح القفل، بينما نظر يوسف إلى أمه السعيدة والى أمير الحزين لأنهما سيبتعدان عنه ...

فقال يوسف محاولا إبعاد أمير عن الجو العام المثقل:

- لقد تفاجأت عندما وجدتك قتلت سيد رضا ... لم أكن اعلم أنك بتلك القوة ...

فابتسم أمير رغما عنه ثم قال:

- لقد فعلتها منتشيا يا صديقي ... فلو كنت طبيعيا لكان قتلني في لحظات

فابتسم يوسف مع ابتسامة أمير ...

ففرغ عزت من فتح القفل، ثم فتح الباب على مصراعيه، وقال مبتسما:

- إنه سري الصغير، نفق يصل إلى خارج المجاورة يصل بكما إلى وسط الصحراء بعيد عن المجاورة والحصار ببضع كيلو مترات وسط أنقاض المجاورة

المجاورة لنا التي احتلها العدو الصيف الماضي وسيقابلكما أصدقاء لي هناك وسيوصلونكما إلى المجاورة الثانية ...

فنظر إلى يوسف الذي ينظر إلى النفق بقلق فقال مطمئنا:

- لا تخف فهي طريقة آمنة ومجربة.

فنظر يوسف إلى أمه التي قد ظهر في عينيها الاستعداد للنزول، فقال إلى أمير:

- إلى اللقاء في الصيف يا صديقي.

فابتسم أمير ليطمئنه على نفسه ثم قال:

- إلى اللقاء في الصيف يا أخي.

ثم تعانقا وسلم عزت على الأم مبتسما، حتى فرغ يوسف وأمير، ثم عانق يوسف عزت، فقال له عزت همسا:

- لقد سحبوا نصف عدد الجنود من المجاورة الثانية وسيهاجموننا بعد الفجر بكل قوتهم وستسقط المجاورة في أيديهم وستكون مذبحة..

ابتعد عنه يوسف في عنف ونظر له مذهولا فقاطعه أمير قبل أن ينطق بكلمة قائلا:

- اذهب الآن واحمي والدتك وابحث عن ريم، وسآتي لك في الصيف كما اتفقنا.

فنظر له يوسف راجيا بأن لا، وزاد قلقه عندما نظر إليه أمير نظرة خائفة، ثم امسك أمير بذراع الأم في لين وقال مبتسما رغما عنه:

- هيا اذهبا الآن حتى لا تتأخرا.

فابتسمت الأم ونظرت إلى يوسف الذي مازال ناظرا إلى أمير بقلق، فشعرت هي الأخرى بقلق ولكنها سرعان ما قالت:

- هيا بنا يا بنى.

فنظر لها قلقا والدموع تلألأ في عينيه ثم قال:

- هيا بنا يا أمي.

فأشار لها بالنزول فنزلت، ثم نزل هو الآخر وهو ينظر إلى أمير الذي يرمقه في خوف ويتوعده بالقدوم ...

حتى أغلق عزت الباب الحديدي ، فغرقا الاثنان في الظلام، يسيران باتجاه حلميهما ...

****

(3)

الربيع ...

" حسناتي عند الزمان ذنوب ... وفعالي مذمة وعيوب

ونصيبي من الحبيب بعاد ... ولغيري الدنو منه نصيب "

–عنترة بن شداد.

*****

فتح باب المنزل بهدوء مع صوت آذان الفجر يطرب كل سامعيه المنتظرين للحظة سجود في آخر ساعات الظلام ...

ليجد والدته تجلس على الأريكة في منتصف المنزل المترب والحديث في أثاثه بعدما فرغت من الوضوء وقد شرعت في قراءة القرآن ... أنهت بقول صدق الله العظيم ثم

أغلقت المصحف ووجهت له نظرة جذلة بها شيء من اللوم، فنظر لها يوسف مبتسما ابتسامة لينة طالبا السماح لتأخره، فقالت بنبرة يفهمها هو:

- إنها تبكي منذ ساعتين في غرفتها.

رمق الغرفة بقلق وسريعا ما تحرك تجاهها، ليدخلها برفق دون طرق...

وجدها واقفة أمام الشرفة والدموع مازالت على وجنتيها تترقب الشروق في أمل بيوم جديد يغير الحزن الذي يطويه الزمان ... فتاة في العشرين ... عينيها البنيتين الجميلتين يجليان جمالا لم يسبق أن رآه أبدا، يظن انه من كثرة الدموع أو من كثرة ما رأت من بشاعة وألم، لا يعلم ولكنهما يحملان سحرا دوما ما سحره ... ملامح وجهها الدقيقة، شفتيها الصغيرة والتي تتلون بلون الكرز الأحمر، والذي يزين بقية ملامحها ...

اقترب منها بهدوء، كانت تسمع خطواته ولكنها لم تتحرك، اقترب منها حتى أصبح خلفها تماما، لف يديه ببطء حول خصرها ليضمها إليه، وقبل رأسها في هدوء وقال بصوت به شيء من البرود:

- اشتقت لك.

ظلت صامتة، لم يرمش لها جفن وكأنها لم تسمعه، فأعاد قوله مجددا ولكن بدون فائدة، فأبعد يديه من حولها بهدوء ولكنها سريعا ما أمسكت بهما وجعلتهما كما كانا، ثم قالت بصوت مبحوح من كثرة البكاء:

- في غيابك تذكرت غياب أمي وأبي فبكيت ولكنني لم أجد من يحنو علي...

قاطعها قائلا:

- ولكنني هن...

فقاطعته متابعة:

- أتتذكر؟ ... أمي؟ ... كانت ابتسامتها رائعة كانت تشعرني بالأمان وأنها ستبقي دائما بجانبي..

صمتت لثواني عندما عادت تبكي، ثم تابعت باكية:

- لم أتخيل يوما أن يذهبا معا ليموتا ... لم أتخيل يوما أن أبقي وحدي... لماذا تأخرت يا يوسف ... لماذا تركتني وسط هذه الذكريات الدنيئة ... لقد وعدتني أنك لن تتركني يوما وأنني لن ابكي إلا دموع فرحة...

استدارت وهي تنظر إلى عينيه، فأقترب منها ليقبلها ... قبلة طويلة ومعها اختلاط دموعها بدمعته التي سقطت على وجنتيه، وكأنهما يتشاركان الأحزان ...

حاولت أن تبتعد ولكنه مازال مقتربا منها لا يريد أن يبتعد إلا بعدما يخرج منها كل مشاعر الحزن ...

فابتعد عنها مغمض العينين ... وعندما فتحهما برفق وجدها تبتسم أمامه ثم صرخت قائله بصوت طفولي:

- عمى حسن ...

فقال يوسف متعجبا:

- من ؟!

*****

في منتصف اللا مكان ... وسط الصحراء ...

الساعة الثانية عشر ظهرا ...

- إنه دورك.

قالها صوت طفل صغير وهو ينظر إلى بضع احجره مصفوفة بشكل غير منتظم وموضوعة على قطعة خشب مربعة رفيعة، ثم نظر إلى الطفل الذي أمامه وقال:

- سأنتظر كثيرا؟

وكان الطفل الآخر والذي يلبس جلبابا بدويا أبيضا وعمة بيضاء فوق رأسه تظهر لون بشرة وجهه القمحية والتي تحولت لذلك من ضوء الشمس الكثيف، يمعن نظره في الأحجار وكأنه يفكر في شيء ليباغت به خصمه في اللعبة، فقال الآخر مقاطعا تفكيره ومشتتا إياه:

- إن أختي الصغيرة تلعب أسرع منك.

فأخرج الآخر زفيره غاضبا ثم قال بحدة:

- حسنا لقد غلبتني ... إنني منسحب.

- إنك ممل وغبي يا سعيد.
- إنك الغبي.

فضرب الطفل الآخر بيده وجه سعيد الذي سرعان ما تورم وظهرت عليه علامات لثلاثة أصابع، فأمسك سعيد بحجر من اللعبة وألقاه بجسد الطفل الآخر بغضب ... فسرعان ما أشتعل الطفل الآخر غضبا فاعتدل ووقف مكانه وركض ليلحق بسعيد الذي سريعا ما وقف وركض خائفا ...

ظلا يركضان بين الخيام الكبيرة منها والصغيرة والتي يفترش أمامها بعض قطع مقاعد السيارات المدمرة وقليل من الحطب المحروق وكثير من الماعز الصغيرة ... حتى اختبأ سعيد سريعا بين الخيام ودخل واحدة ...

دخل الخيمة بهدوء ولكنه ظل مرتعبا من الهدوء والقذارة التي تملأها، فسار بداخلها في خطوات قصيرة خوفا من أن يجد شخص يوبخه لتطفله وبلاهته ... فلقد دخل خيمتي وظل يسير بها خوفا من صديقه!

وفجأة سمع صوت تأوه في إحدى جوانب الخيمة المظلمة ... نظر إلى مصدر الصوت ولكنه لم يحدده بسبب قله الضوء، فقرر أن يقترب بهدوء ... وبعد لحظات رأي ما جعله يصرخ خوفا وفزعا قائلا:

- عمي حسن ...

رأى شخص متعرق ومعلق بأحبال من قدميه ورأسه تتجه لأسفل مقطعا الملابس ومشوه المظهر بسبب كثرة الجراح التى اصيب بها...

ثم قال الشخص المعلق بعدما استيقظ مفزوعا:

- من ؟!

فصرخ الطفل مرة أخرى ولكن بنبرة أعلى:

- عمي حسن ...

ولكن سريعا ما باغتته فتاة شابة من خلفه ووضعت كفها على فمه لتخرسه، فنظر لها الطفل سريعا باكيا، ولكنه اطمئن عندما عرف هويتها...

فقالت له بلكنة بدوية:

- اذهب لتلعب مع أصدقائك.

ثم وجهت نظرها إلى يوسف المعلق والذي ينظر إليها بغرابة، ثم صاح قائلا:

- من أنت؟

فأخرجت صوتا معناه أن يهدأ، فسريعا ما قال حانقا:

- أين أنا ؟ ... أنزليني من هنا.

فنظرت خلفها سريعا عندما سمعت خطوات بجانب الخيمة، فرمقته في خيبة أمل ثم قالت بصوت خفيض:

- سأفك قيدك ليلا... إلى اللقاء...

ثم ركضت باتجاه فتحة صغيرة في خلفية الخيمة...

فصاح يوسف في حنق:

- أنت!!

خرجت من الخيمة ركضا ، وظل هو رامقا الفتحة الصغيرة في ضيق، وسريعا ما أدار نظره إلى مدخل الخيمة عندما وجد شخص يدخلها ... شخص طويل القامة وعريض المنكبين ملامح وجهه بدوية أصيلة قد تشققت بفعل الشمس ... يلبس جلبابا أسودا وعلى رأسه عمة سوداء منقطة بلون أحمر داكن ويضع يديه اليسرى على السيف المعلق بجانبه ...

فقال البدوي بصوت غليظ:

- اهدأ فلن يضرك شيء.

ثم اقترب من يوسف المعلق والمتصبب عرقا، ووقف أمامه مباشرة ينظر إليه في قوة وعزة وكأنه يري عدوه مهزوما أمامه... وقال ببرود:

- أعلم أنك تسأل أين أنت وما الذي أتى بك إلى هنا؟

ثم أردف قائلا:

- واعلم أن فضولك قادك لتحاول الهرب...

نظر إلى يوسف بغرابة عندما سمع صوت أنفاسه تخرج بصعوبة، فلقد حبس الدم في رأسه، فسريعا ما أخرج سيفه وبسرعة البرق أطاح بالحبل الذي يربط ساقيه ... ليسقط يوسف أرضا على رأسه ...

أمسك يوسف حلقه وأخذ يشهق بصورة مجنونة، وكأنه يتشبث بروحه حتي لا تخرج ...

- ها أنا أنقذتك من الموت وهذا دليل على أنني لا أريد بك مكروه.

فنظر له يوسف الذي مازال ممسكا بحلقه وعروق وجهه تتجلى كالشمس وسط الظهيرة...

فجلس البدوي القرفصاء أمام يوسف الساقط أرضا، ثم قال:

- ادعي حسن

ثم أردف قائلا بعدما أدار يوسف وجهه دون اهتمام لحديثه:

- حسنا يبدو أنك عنيد ... ما اسمك؟

فرد يوسف في حنق:

- يوسف

فابتسم حسن عندما وجد استجابته، ثم قال:

- حسنا يا يوسف ... عرفني بك.

فرمقه يوسف بغضب عندما ضاق صدره بسبب أسئلته، وعندما وجد الفتاة تسترق السمع من الفتحة في مؤخرة الخيمة، فعقد حسن حاجبيه غاضبا وقال:

- لا يمكن أن أخرجك خارج حدود الخيمة، فسيقتلونك إن لم تتحدث.

فلم يعطى يوسف اهتماما لحديثه، فزفر البدوي غاضبا، ثم اعتدل واستدار واتجه لمدخل الخيمة وقال:

- كن ذكيا ولا تحاول الهرب من هنا ... إنك في قلب الصحراء وتبعد مئات الأميال عن المجاورتين.

ثم خرج البدوي، فرمق يوسف الفتاة، وأشار لها بالدخول، ظنها مفتاح القيد وسبب لهروبه ... هكذا قاده أمله ...

تسللت الفتاة إلي الخيمة وسكنت أمامه مباشرة، فقال يوسف غاضبا:

- من أنت؟ ومن الذي أتى بي إلى هنا؟ ولماذا أنا هنا؟ وأين أنا؟ ومن هذا الشخص المتعجرف الحقير؟ وأين أم...

فقاطعته بنفس الصوت ليهدأ، ثم قالت بلهجتها البدوية مبتسمة:

- إذا ظللت تسأل لن تجد ردا...

فصمت عندما فوجئ بردها المقنع... فهذا الرد لا يمكنه أن يخرج إلا من فتاة ناضجة... ثم استطردت قائلة:

- ادعي لمي والذي أتي بك إلى هنا قطاع الطرق.

ثم قالت مستدركة :

- إنك هنا لأنهم وجدوك فاقدا للوعي وسط أنقاض المجاورة الثانية فلم يريدوا تركك ، أما هذا الشخص المتعجرف فهو والدي ... حسن البدوي وهو من طلب استضافتك..

صمتت لوهلة لتخرج أنفاسها ثم قالت:

- واطمئن والدتك مع أمي في خيمتها وكما حكي لي ... لقد وجدوها تحتضنك بقوة وتبكي عندما كنت فاقدا للوعي إثر حرارة الشمس...

قاطعها سائلا في قلق:

- هل هي بخير؟
- إنها بخير.

حاول النهوض ولكنها أمسكت يديه وقالت محذرة:

- لا ... لا تستطيع الخروج من هنا ... إنك غريب وسيقتلونك عندما يرونك ...
- وكيف لي الخروج إذا؟
- سيعقدون اجتماعا وستحضره لتعرفهم بنفسك ووقتها سيقررون ماذا يفعلون بك، ولكن قبل هذا يجب أن تقول لأبي كل شيء عنك.

فعاد الغضب مرة أخرى عندما عرف انه سيمكث مكانه، ثم قال:

- أريد أن أرى أمي.
- لا تستطيع ولا هي تستطيع، آسفة يا ...

ثم سالت عندما تذكرت أنها لم تسأله عن اسمه:

- ما اسمك ؟

فنظر لها مبتسما ثم قال ساخرا:

- إنك ذكية.

فضحكت رغما عنها ثم قالت:

- حسنا يا يوسف

ثم استدارت واتجهت إلى الفتحة الخلفية وقالت:

- أوراقك الصغيرة عندي، ولم يقرأها أحد.

سمعها فوضع يده على جيب بنطاله فوجده فارغا فعقد حاجبيه غاضبا وقال:

- لماذا أخذتيهم؟
- فضول.

ثم خرجت، وتركته مشتعلا غاضبا ثائرا بسبب ما اقترفته ... فسريعا ما فك قيد قدميه، واعتدل وركض تجاه الفتحة...

وعندما خرج داعب ضوء الشمس عينيه التي مكثت كثيرا في الظلام فلم يستطع أن يرى أمامه جيدا، فوضع يده على عينيه محاولا الرؤية ولكنها سريعا ما لكزته في ظهره ليستدير منعدم الرؤية مبتسما ...

وبعد لحظات استطاع أن يرى بوضوح فوجدها تقف بعيدا وتضع يديها فوق فمها خائفة، فسريعا ما قلق مدركا انه اقترف خطئا كبيرا بعدما حذروه من الخروج ...

نظر خلفه فوجد عشرات البدو ينظرون إليه بغرابة ومنهم من يبتسم ساخرا من مظهره ومنهم من يرمقه بغضب...

فصاح أحدهم قائلا:

- غريب في أرضنا ... غريب في أرضنا...

وسمع آخر يقول:

- انه أجنبي ... اقتلوه...

وسرعان ما رأى أكثرهم يرفعون بنادقهم، ورأى وسط الناس شخصين ضخمين يقتربان منه سريعا، ولكنه لم يستطع الحراك خوفا منهم... فلقد تجمدت حواسه خوفا من مشهدهم ولأنه لم يستعيد قوته كاملة...

وعندما وصل إليه الشخصان، تعجبا منه لأنه لم يركض ولكن لم يلبث أحدهما أن لطمه على وجهه بأسفل السلاح ليقع يوسف مغميا عليه...

فيخرج بين العامة حسن البدوي مشهرا سيفه للأعلى ويصيح بكل قوته قائلا:

- انه في ضيافتي ... انه في ضيافتي...

ليبتعد عنه الجميع بغرابة، وكأن إشهاره لسيفه وتلك الكلمة هي الخلاص "في ضيافتي" ...

وبعد بضع ساعات...

استيقظ مفزوعا عندما شعر ببرودة المياه التي ألقيت فوقه من لمي التي سريعا ما ركضت مبتسمة خارج الخيمة، أفاق من نومه وأخذ يلتقط أنفاسه في هرع، شعر وانه في معتقل أو ما شابه...يستيقظ على ماء بارد ، عذاب لمن لم يعتد عليها...

ظل مغمض العين يحاول التماسك من برودة المياه، نعم إنه جو الربيع ولكن الصحراء لا تميز إلا حرا صباحا وبردا قارص ليلا...

فتح عينيه ببطء حتى لا يتفاجأ مثل المرة السابقة، فوجد والدته نائمة على الرمال في منتصف الخيمة، جرى القلق كالدم في عروقه فلقد ظنها ميتة ، فلم يعد متحمل لفقد آخر ... تحرك بخطوات سريعة تجاهها، امسك برأسها ورفعها على يده وقال:

- أمي !، استيقظي أرجوك.

فلم ترد، فزاد قلقه أكثر فأكثر، شعر أن من تبقت له في الحياة تغادره ويقف هو مكتوف الأيدي...

ظل ينادي عليها ولكنها لم ترد، لم يتحمل صمتها فسقطت الدموع رغما عنه، بكي بحرقة ممسكا بقوة كتفها، يهزها بقوة لتستيقظ ولكن بدون فائدة، زادت حرقة بكائه شعر بحريق يفوق كل بركان بين ضلوع صدره، ينظر إليها والدموع تغطى عينيه، حاول أن يحرك رقبتها ورأسها ليسندهما على فخذه ويمسح لها وجهها من الرمال التي لطخته...

ملامحها كبيرة السن، تدل أنها امرأة شارفت على السبعين، تجاعيد وجهها تجلي مدى البؤس الذي مرت به، منذ موت والده وهو صغير، ومن بعده موت أخيه منير... عندما يموت لك زوج وابن ستفقد روح الحياة مع كل دمعة، يوم بعد يوم ذكرى إثر ذكرى، حتى تصبح مثلهما ميتا...

ولكنها ظلت متماسكة، تحنو عليه وإيمانها بربها واملها فى ولدها كبير...

يوسف الذي تربى على صورة والده والتي جسدها الزمان في أخيه منير، الذي علمه معنى الثورة، معنى الرجولة، ومعنى كيف تدافع عن حقك... وأمك ووطنك ...

ظلت واقفة بجانبه تسانده في طفولته كى لا ينشأ في حزن ووحدة، حاولت ولكنها لم تستطع... فبخطأ سيادي قامت الحرب! ...

ليصبح وحيدا حزينا...

- أماه!

قالها بحرقة ولكنها لم ترد، فقال باكيا:

- أعلم أنني أخطأت في حقك عندما ربطت مصيرك بمصيري، اعلم أنني ضعيف ولست مثل أبي وأخي، لقد وعدتك أن أجعلك سعيدة ولكنني لم أستطع... أعلم أنني سأظل كما أنا ضعيف فاشل وجبان..

ثم صاح قائلا:

- لم أستطع...

ثم أردف قائلا بصراخ هيستيري:

- لمي!!

ثم قال بصوت خفيض:

- أرجوك يا أمي استيقظي، سنرحل من هنا إلى المجاورة الأخرى، بل إلى خارج البلاد، ولكن فقط استيقظي...

دخلت لمي إلى الخيمة هرعة من ندائه، وقالت متسائلة:

- ماذا هناك؟

فنظرت إلى مشهد يوسف الذي يحتضن أمه والدموع تذرف من عينيه بغزارة على وجنتيه وهو يقول:

- إنها لا تنطق ... إنها لا تتنفس...

وللحظات لم تتحرك ساكنة من مكانها، فنظر إليها يوسف متذللا أن تفعل شيئا ، ولكنه وجدها شاردة في ملامح وجهه الباكية وفزعة في أن تصاب أمه بمكروه...

فصاح فيها قائلا:

- ساعديني أرجوك.

فأفاقت من شرودها ونظرت إليه خائفة، ثم قالت:

- لقد أتت لتراك، وتركتها سليمة.

ثم اقتربت منهما بخطوات سريعة واتكأت عل ركبتيها أمامه مباشرة وأخذت تتحسس جبهتها ووجهها، وتراقب دقات قلبها، ثم ابتسمت وقالت:

- إنها بخير.

فنظر لها متعجبا ثم قال:

- لماذا لم ترد علي؟

فضحكت رغما عنها وقالت:

- تغير الجو سبب لها هبوطا في ضغط الدم ففقدت الوعي فقط، انه أمر طبيعي يصاب به الأطفال هنا حتى يعتادوا المناخ.

فأخرج زفيره وأغمض عينيه باطمئنان ، ثم قالت في لين:

- سأحضر أمي لتعالجها، أخرج أنت فقط لتشم النسيم الصحراوي لعلك تهدأ، وعندما تفيق سأناديك.

فنظر إلى أمه وعينيه تظهر رفضه لما قالت، فمدت يدها لتربت على يده وتقول:

- اخرج الآن ولا تخف.

تحسس ملمس يدها الناعمة ولكنه سريعا ما أبعد يده وقال مغيرا للجو العام:

- ألن يقتلوني إذا خرجت؟

شعرت بالإحراج قليلا عندما أبعد يده، تنحنحت ثم قالت بعدما وجهت نظرها إلي الأم:

- لن يقتلوك بعدما قال أبى انك في ضيافته، والآن الوقت متأخرا ولن يميزك أحد، ابتعد فقط عن التجمعات أمام الخيام...

فتنهد ثم قال:

- حسنا، ولكن عندما تفيق أخبريني.

ثم خرج من الخيمة مثقلا بالهموم مما حدث، وأخذت هي ترمقه حتى خرج وهى تفكر في انطوائه...

سار بين الخيام ينظر إلى أسفل قدميه، فكر فيما قال لأمه... فكر في أمير وفكر في ريم ...

كيف سيستمر الحال مع والدته هكذا، تارة نفلت من الموت بين القصف وتارة أخرى كانت ستموت من احتجازنا في هذه الصحراء... بدأ يشعر بأن غاية وجودة في هذه الحياة هي الابتلاء، وكيف لا فمنذ نعومة أظافره وهو يرى الجميع يعاني ...

أمير، الذي أبعدني لأكون آمنا مع والدتي ولأبحث عن ريم، أين هو الآن ... اعتقد أن العدو فتك بالمجاورة في أولى ساعات الهجوم، إنهم ضعفاء ولكنهم يملكون إرادة تذيب بطش العدو وأسلحته الفتاكة... ولكنها تختبئ بين ثنايا الفرقة والخوف... لم يمت... لا اعلم لماذا أجزم، ولكنني لا أتخيله ميتا...

ريم ... أين أنت؟ ...

والده الذي مات منذ نعومة أظافره، لم يعلم عنه سوي اسمه الذي يلحق باسمه فقط ... سعيد!

أحيانا يكرهه، فهو يعلم عنه القليل، رجلا ثوريا قويا، من مهده إلى لحده شريفا، ولكن هل هناك رجال شرطة شرفاء...

إذا لماذا أقالوه ... حسنا إذا كان جيدا إلى هذه الدرجة فخطئه الوحيد هو انه أتى بي إلى هنا إلى هذه الحياة الصعبة، لولاه لما ذرفت الدموع بسببي، إن آلمهم الآن يفوق آلم موت إنسان ، زهق روح... الله يرحمك يا والدي لولاي لما وجد الألم، وقد وجدتني أنت ...

جلس على الرمال بعيدا عن الخيام وأخذ ينظر إلى السماء الصافية ...

سماء الصحراء ليلا متعه لمن لم يجربها، صفاء نفس لم تمر به أبدا، حياة أخرى تثقلك بالهم لو كنت مهموم وتجرعك سعادة بنسماتها الباردة الجميلة لو تركت باب

قلبك مفتوحا... اعلم أنها ممتلئة بالثعابين والعقارب والذئاب ولكن ما يمر به أكبر من ذلك بكثير، أكبر من الموت نفسه ... من أحيا نفس فلقد أحيا الناس جميعا ... ومن قتل نفس فقد قتل الناس جميعا ...

وها هم بسببي يواجهون الموت...

ريم ... أين أنت؟ ...

بدأ الهواء يزيد بردا عندما يقترب الوقت من الفجر، ولكنه لم يعبأ، فعقله فصله عن واقعه...

شرد في خياله، ليسرح في ذكرياته ...

في أول لقاء ...

*****

كان يقف مع أمير ومنير وروز أمام منزلهم – منزل العائلة قبل الحرب –، عندما أتت سيارة كبيرة لنقل الأثاث المنزلي لتقف أمام المنزل المواجه لمنزلهم وتتبعها سيارة حديثة سوداء وتصف ورائها مباشرة، وينزل منها رجل أربعيني يتحدث مع الرجل الذي كان يقود سيارة الأثاث ... لم يستطع أن يرى ملامحه وقتها لان تركيزه انصب نحوها...

فتاة في العشرين من عمرها، كم كانت رائعة، ملامحها وعينيها وجسدها الذي يشتعل أنوثة ...

وقف يراقبها وهي تنظر إلى البيوت حول بيتهم الجديد لتري أين ستسكن ؟ ، كانت ملامحها تظهر رفضها للمجيء، علم بأنها لم ترد المجيء ولكنه لم يهتم، لكزه أمير في معصمه واقترب منه هامسا:

- والدتها تنظر إليك بغضب.

نهى بيده رامقا الفتاة ، فلم يرمش له جفن عندما لاحظت نظرته لها، فظلت هي الأخرى تراقبه متعجبة من نظرته ...

فقال له أمير ساخرا:

- بنظرتك المتسلطة تلك ستنفر منك.

فابتسمت روز ثم قالت ساخرة هي الأخرى:

- ابن خالتي أغرم بفتاة يشاهدها لأول مرة.

فابتسم كل من كان واقفا ماعدا يوسف الذي ظل رامقا إياها، فقال أمير ساخرا:

- إنه مغرم بالسماعات التي تلبسها في أذنيها فقط.

فضحك الجميع، فتابع أمير بنفس النبرة:

- هل تنبأت بقدومها أيضا كما تتنبأ بالحرب الأسطورية الوهمية القادمة...

فأخرج يوسف سبة من فمه ثم قال:

- نعم، تنبأت بها ...

فرد منير ساخرا:

- ويا للخسارة!، ستموتان في الحرب.

فقال يوسف متعجلا:

- لقد دخلا البيت، وهي الآن وحدها في السيارة.

فضحك أمير بصوت عالي، ثم قال:

- وماذا نفعل نحن؟

فتحرك يوسف خطوة للأمام متجها نحوها دون الرد على حديث أمير، فأمسكت روز بذراعه وقالت:

- اترك لي التعارف الأول، ادخلوا المنزل وساعدوا أبيها وأنا سأجلس معها قليلا ...

****

ضم ركبتيه إلى صدره محاولا تدفئه نفسه، وأكمل شروده في الذكريات ...

أول حديث ...

****

مدد جسده على السرير ممسكا بصحيفة الأخبار، وأخذ يرمق بعينيه كل الأخبار باهتمام كعادته، وفجأة شهق بصوت واضح عندما قرأ أحد الأخبار، فدخل عليه منير مفزوعا من صوته، وعندما رآه على السرير قال:

- ماذا بك يا مجنون؟، هل تنبأت بشيء جديد؟

فوجه يوسف نظره إلى منير وقال مرتعبا:

- أتتذكر عندما قلت لك أن بداية الحرب شرقا، عندما ينضب البترول ويبدأ القلق الدولي عندما يفرغ المخزون الدولي من النفط؟

فأومأ منير برأسه أن نعم، فتابع يوسف قائلا بقلق:

- واليوم فرغت أولي محطات استخراج النفط في الشرق الأوسط ... وأعلنوا إغلاقها ... كما جمع الخبر ان هناك بعض المحطات أقصى الشرق وتحديدا إيران بدأت بالنفاذ والآن هم يحاولون إيجاد البديل ... إنها الحرب يا أخي إنها الحرب ...

فابتسم منير ابتسامة ساخرة ثم قال:

- لقد ظننتك ستقول إن الحرب على الأبواب ...

ثم أردف:

- إذا قامت الحرب ستقوم بعد مائة عام، لا تقلق فمعي مسدس صغير يحمينا إذا قامت الحرب.

فزفر يوسف في ضيق عندما لم يرحب منير بفكرته، ثم قال:

- لقد أخطأت عندما قلت لك تنبؤاتي.

فابتسم منير ابتسامة جذلة ثم قال باقتضاب:

- انهض ففتاتك هنا.

فاعتدل يوسف سريعا من موضعه وقال:

- فتاتي من ؟!

فقاطعتهما روز التي دخلت إلى الغرفة مبتسمة ، ثم قالت:

- هيا غير ملابسك إنها في غرفتي.

ابتسم فرحا، فابتسم منير عندما رأي الفرحة في عينيه أخيرا، ثم قال:

- سأخرج قليلا.

ثم غادر منير الغرفة مبتسما ، فنظرت روز إلى يوسف الذي ارتبك عندما علم أنها هنا، ثم قال:

- حسنا لا تأتي بها إلى هنا...

" لقد أتيت فعلا "

نظرا إلى مصدر الصوت فوجدها تدخل إلى الغرفة تتفحص أثاثها في إعجاب، ثم قالت:

- آسفة، كان يجب أن استأذن ولكنني أردت أن أري غرفة المتنبئ

فابتسمت روز ساخرة، فنظرت لها ريم عاقدة حاجبيها قائلة:

- روز!!

فتردد يوسف عندما سمع حديثها، لم يصدق نفسه أنها أمامه في غرفته، توتر مثل طفل في أول امتحان له، لم يلفظ بحرف...

فقالت هي لتغير الجو العام الموتر:

- عندما قالت لي روز أنك تتنبأ، أردت أن اعلم كيف وبما تتنبأ ؟!

قام من على السرير في حركة بهلوانية سريعة، جعلتها تبتسم، ثم تنحنح وقال:

- في الحقيقة...

فقاطعته ضحكة روز الساخرة وهي تقول:

- في الحقيقة ... ها هو بدأ بالحديث مثل الرؤساء... هيا بنا يا ريم من هنا.

فعقدت ريم حاجبيها في اصطناع للغضب وقالت:

- اتركيه يكمل...

ظل يوسف صامتا غاضبا من مدى السخف الذي ازحم الغرفة وملأ الهواء حتي شعر بالاختناق، فقالت روز لتخفف التوتر :

- سأترككما لدقائق واذهب لأجهز المائدة مع خالتي...

نظرت لها ريم بغضب مما ستفعله، ونظر هو إليها مبتسما بعدما فعلت ما أراده، ثم انسحبت من الغرفة مبتسمة...

فعقدت ريم ذراعيها في توتر واستندت على المكتب الخشبي ونظرت اليه مبتسمة، ثم قالت:

- هيا أخبرني كيف تتنبأ وبما ؟

فتنحنح بعدما جلس على السرير ثم قال بصوت به شيء من البرود ليداري التوتر الذي يعتريه:

- عندما وجدت المنزل الذي أمامنا فارغا توقعت أنه سيأتي اليوم ليسكنه أناس وبالطبع كنت أتوقع أن يكون من بينهم فتاة ، فبحسب الأبحاث كل ثلاثة أشخاص حول العالم بينهم فتاة ، ولقد كنت دائما أنعت حظي لأنه لم يكن لدي ابنه جيران لأحبها...

صمت عندما قالها رغم عنه، لم يقصد ولم يرد أن يعبر لها الآن، كم هو أحمق!

ابتسمت ونظرت إلى الأرض في حياء بسبب كلمته ، فتنحنح ليغير موضوع الحديث قائلا:

- ما رأيك في مكتبتي الصغيرة ؟

ثم أشار لها بسبابته للمكتب الذي تستند عليه، فاستدارت ونظرت خلفها، فأخذ يتفحص جسدها بحقارة ...

ثم قالت مذهولة:

- ما شاء الله، هل قرأت كل هذه الكتب؟

فقال بعدما تحرك من على السرير ووقف بجانبها وقال:

- إنهم مائة كتاب، لم ولن آت بأكثر منهم.

فنظرت له متسائلة، فأكمل قائلا بثقة بعدما أبهرها:

- قيل لي قديما أن بكل كتاب تقرأه تعلو درجة عمن لا يقرأ ...
- كيف هذا ؟
- عندما يكتب شخص كتاب، يجمع به ثقافات وآداب استخرجها من عدد كبير من الكتب التي قرآها قديما، والعديد من التجارب التي استفاد منها في حياته، فتقرأ أنت كل هذا فترتقي درجة عن الجميع.

فابتسمت منبهرة مما سمعت، فلم تعتقد أنه بهذه الثقافة أبدا ، شاب في الخامس والعشرين من عمره وفي هذا الزمان لن يهتم إلا بنوع الهاتف الذي سيشتريه عما قريب ، أو ما هي "التويتة " التي سيكتبها اليوم "لجذب" الفتيات أو ليظهر في ثوب الشاب العميق الذي واجه الكثير وتعلم وحان الوقت ليعلم البشرية أجمع كيف تواجه مثله !! ...

ابتسمت عندما رأته مبتسما، وابتسم عندما أدرك أن صورته ارتفعت في آفاق عقلها الآن ، وأن بهذه الخطوة القادمة ستعجب به أكثر...

أخرج من درج مكتبه بعض الأوراق وأظهرها لها ثم قال:

- في هذه الأوراق الثمانية سر لا يعلمه إلا أنا والآن أنت.
- ما المكتوب فيهم ؟
- ما كتب فيهم لا يقال شفهيا، احمليهم معك للمنزل وتمعني في قراءتهم.

فأمسكت بالأوراق وعندما شرعت بالقراءة ، دخلت عليهما روز الغرفة وقالت مازحة:

- هيا يا قيس، هيا يا ليلي، لقد وضعنا الغداء...

فنظر لها مبتسما، فابتسمت، ثم خرجا من الغرفة...

****

عاد من شروده، عندما اشتد الهواء أكثر، فلقد اقترب الفجر، ولكنه قد سرح في النجوم يتذكرها...

فاليوم لها، وكل يوم...

قاطعت تفكيره لمي ، التي كانت واقفة خلفه تراقبه بإعجاب، قائلة:

- إنك غريب يا يوسف.

نظر لها، فوجدها تقف خلفه مباشرة وممسكه بكوبين من الشاي، فقال لها:

- منذ متي وأنت تقفين هنا؟

فابتسمت ثم قالت:

- من بعد ما خرجت بنصف ساعة.
- نصف ساعة!!

قالها متعجبا، فلم يلحظ تأخر الوقت إلي هذه الدرجة، فلقد ظن أن الزمان قد توقف عندما كان يتذكرها، أو انه لم يجلس طويلا...

فردت:

- نعم إنك في الخارج من ساعة.

فابتسمت وهي تقترب منه، ثم جلست بجانبه، ومدت له كوبا، فنظر لها متعجبا ثم أخذه، فقالت متسائلة:

- لما التعجب ؟

فرد بصوت به شيء من البرود وبابتسامة جذلة:

- عندما قامت الحرب، ظننت أن البدو الذين يهددون أمن البلاد بقوتهم وبطشهم وحيطتهم ودهائهم، هم من سيقفون أمام العدو ويسقطوه بعدما انهزم جيشنا ، ولكن بعدما قامت الحرب ، لم تسقط منكم فارغة طلقة! ... وهذا ما جعلني أتعجب من مساعدتكم لي ... إذا كنتم بهذه المروءة فكيف لم تدافعوا عن وطننا ؟

فابتسمت، فتعجب من بسمتها ونظر إليها متسائلا، فقالت:

- نحن البدو نتزوج من بعضنا، فنحن معروفون بالعرق الواحد، وطننا أرضنا التي نبني بها خيامنا فقط، ألم تعودونا على هذا ؟
- نعودكم عل...

قاطعته مكمله في غضب:

- ألم تحاصروننا كرها فينا ؟ ألم تريدوا قتلنا ؟ لتطهروا البلاد من القتل والتخلف ؟ على هذا عودتمونا ولهذا نكرهكم...
- إذا لماذا تساعدونني أنا وأمي ؟
- لأننا رجال! ولن نترك الضعفاء يموتون أمامنا ونقف مكتوفي الأيدى
- لقد تركتم الضعفاء يموتون بالفعل وظللتم في خيامكم...

فأخرجت الأوراق من جيب عباءتها، وأعطتهم له ملفوفين ومربوطين بخيط رفيع، ثم قالت:

- وتركتهم أنت أيضا.

نظر لها بضعف بعدما اتكأت على جرحه الذي طالما هرب منه، فأخذ منها الأوراق ووضعها في جيبه، ثم قال:

- ولكنني الآن في رحلة تصحيح الخطأ...

فنظرت إلي السماء وقالت:

- تكلم مع أبي ، فمن الممكن ان نصححه نحن أيضا...

ابتسم، فابتسمت، ثم قالت:

- والدتك نائمة الآن وغدا ستفيق سالمة إن شاء الله.

فابتسم لها شاكرا على ما فعلته، فقالت:

- عرفني بك.
- ماذا تريدين أن تعرف ؟

- كل شيء.

فتنتح، ثم نظر إلي السماء وقال:

- يوسف سعيد ، ستة وعشرون عام ، تخرجت من كلية الهندسة ، وفي السنة الرابعة قرأت خبر في الصحيفة أن النفط شارف علي الانتهاء وأن الغضب تسلل إلي نفوس أنظمة الدول الكبيرة ، فكتبت تلك الورقات، وأطلقت عليها تنبؤ الحرب العالمية الثالثة، وظلت سرا حتى قرأها أخي منير...

فقاطعته سائله :

- من منير؟
- انه أخي الأكبر، ولقد توفي أثناء محاربته للعدو.

ثم أكمل حديثه قائلا:

- لم يصدقها في البداية، ولكن عندما ضرب أول صاروخ تجاه أولي مجاوراتنا وأقربها للحدود الخارجية ، صدقني ... أخذت الأوراق وأعطيتها لأحد المدرسين لي في الجامعة، أخذها وغاب لمدة يومين ، ثم عاد وقال لي " لو لديك نسخة أخرى منها فالأفضل ان تحرقها، لأنهم لو عرفوا أن تلك الأوراق تسللت الي العلن سيقتلونك أنت وجميع من حولك " ثم اخرج الأوراق وقطعهم أمامي...
- وهل كنت تملك نسخة أخري ؟
- آخر نسخة هي التي كانت معك الآن.

ثم أردف قائلا :

- وبهذا أصبحت سببا في كل هذا ، لأنني خفت من تهديده ووضعت الأوراق في درج المكتب ولم يخرجوا إلا بعدما قامت الحرب...
- ولماذا أخرجتهم ؟
- لأتنبأ بالحل ...

نظرت له وفي عينيها يظهر الشغف مما سمعت ، إنه عظيم بقدر فاق خيالها، عندما رأت دموعه خوفا على والدته، وعندما وجدت معاملته الجيدة لها في بيئة لا تقدر أعمال النساء ، وعمقه في التفكير و لامحدودية خياله ... إنه يبهرها...

- أريد أن أتحدث مع والدك.

قالها، ليخرجها من شرودها به، فقالت مرحبة:

- إنه في الخيمة ينتظرك.

فقال لها مازحا ومحاولا تغيير موضوع الحديث:

- وجالسة أنت بجانبي تحدثينني وتتركيه يجلس منتظرا ، لم أخطئ قولي عندما قلت لك إنك ذكية...

فابتسمت رغما عنها، فقال:

- هيا بنا ؟

فتنهدت وقالت:

- هيا بنا.

*****

وفى الخيمة، دخل وحيدا ، ليجده جالسا على أريكة قديمة يسبح على أصابعه ، فرمقه بهدوء بملامح لا تدل على شيء ، ثم قال:

- اجلس يا يوسف.

فدخل يوسف خائفا من وقاره ، ثم جلس أمامه مباشرة ، فأردف حسن البدوي:

- ماذا تريد أن تعرف يا يوسف ؟

فنظر له يوسف مبتسما ، ثم قال:

- أريد أن اعرف كيف جئتم بي إلي هنا ، آخر ما أتذكره أنني خرجت من الممر ووجدت نفسي على أعتاب المجاورة الثانية، ووقتها وجدت شخصا ينتظرني بسيارة وأشار إلي بالقدوم ، فأمسكت بيدي أمي وعندما اقترب، سمعت صوت الطائرات في السماء، فنظرت إليه بقلق وأشرت له أن ينتظر ولكنه ركب السيارة ورحل خوفا من أن يفجروه، وبقيت أنا وأمي داخل المجاورة المدمرة حتى طلوع الشمس، حاولنا الاختباء ولكن لم نجد مأوي وسط الأنقاض، هذا ما أتذكره، وما بعد ذلك أريد أن اعرفه منك.

فرد العجوز مبتسما:

- حسنا ، إننا نحن البدو لدينا أعين كثيرة في المجاورة الأولي وفى المجاورة الثانية ولنا علاقات مبادلة مع قطاع الطرق، ولنا في كل ميل عين، تخبرنا بالقادم،

عرفنا أن الجنود قادمون شمالا باتجاه المجاورة الأولي وأنكم لن تستطيعوا التحمل، فتنبأنا بسقوطها، وعرفنا أن هناك مصابا مع امرأة عجوز على بعد كيلوين من هنا، فانتظرنا فترة لنطمئن أن الحرب انتهت هناك، وبعدما علمنا أن المجاورة الأولي أصبحت أنقاض ودمر السور أرسلنا رجالا ليخبرونا بالوضع حتى نقرر أي طريق سنسلك ، الهرب من هنا ؟ أم المكوث والحرب ، ولكننا عرفنا أن العدو أراد الانتقام فقط من أهل المجاورة... وعندما كان قطاع الطرق هناك وجدوك فاقدا للوعي ومجروح وأمك بجانبك تبكي بحرقة خوفا عليك، فلم يستطيعوا تركك فقابلوا رجالنا ليبدلوك...

فابتسم يوسف عندما علم دهاءهم، ولكنه قلق عندما عرف دمار المجاورة الأولي، ثم سأل:

- وماذا تعلم عن المجاورة الأخرى أيضا؟
- لا أعلم عنها إلا أنها أصبحت مثل باقي المجاورات، لقد فتكوا بكل من بها، وأمسكوا بمن تبقي حي ...

ثم صمت، بعدما زاد قلق يوسف علي أمير، بعدما شعر أنه مات فعلا، وأن ما لا يريد أن يتخيله حدث بالفعل ، فقال حسن بعدما رأي دموع يوسف تتلألأ في عينيه:

- هل تركت عزيز خلفك ؟

فرد يوسف بصوت مبحوح به شيء من الرعشة:

- لقد تركت أخا لي.

فربت حسن علي كتفه ثم قال:

- ولماذا تحزن؟، إذا مات فهو شهيد، وإذا امسكوا به فهو حي يرزق، عليك فقط أن تعرف أين هو.

فأومأ يوسف برأسه أن نعم، فتابع حسن سائلا:

- والآن جاء دوري لأسأل...

فنظر له يوسف نظرة مصغيا ، فأردف حسن:

- أريد أن أعلم من أنت
- وماذا تريد أن تفعل ؟

فأخرج يوسف زفيره ليعطي لعقله مساحة ليفكر، ثم قال:

- يوسف سعيد أطلس، واحد من جماعة المقاومة في المجاورة الأولي...

فقاطعه حسن سائلا:

- أخا لمنير أطلس؟

فأومأ برأسه أن نعم فقال حسن مادحا:

- بطل من أبطال الحرب ، وأول شهيد في المجاورة الأولي ، أهلا وسهلا بك.

فهز يوسف رأسه محيي ، ثم تابع يوسف قائلا:

- وقد تركت المجاورة الأولي لأواجه في المجاورة الثانية ، ولكنني لم أعلم بقدوم العدو وقتها.

- وتركوك ترحل وحدك لتواجه ؟ بسلاح صغير ؟

فوضع يوسف يده على جانبه ولكنه لاحظ اختفاء السلاح الذي تناساه من كثرة الضغط، فابتسم حسن وقال:

- إنه في حوزتي الآن، إنه قانون البدو، إذا دخلت بيتي فأدخله بدون سلاح...

فابتسم يوسف رغم غضبه، ثم تابع قائلا:

- سأساعدهم في الخطط وليس الحرب.
- كيف هذا ؟

فمد يوسف يده اليسرى وأخرج الأوراق، ثم أعطاها للعجوز وقال:

- لقد تنبأت بالحرب، وخشيت الاعتراف، والآن حان الوقت للمواجهة.

فأمسك حسن البدوي بالأوراق وفك الخيط وأخذ يقرأ...

****

في الساحة تجمع عشرات الناس من البدو في منتصف أرضهم، وجلس أكبر ثلاثة منهم –كبار القبيلة –وسط التجمع على الكراسي القديمة ووقف حولهم البقية، وكان من بين الثلاثة حسن البدوي، ينظر إلى الكهلين الجالسين آمل بعدما أعطى الأوراق الثمانية لهما ليقرآ ما فيهم...

وبعد لحظات، تنحنح واحد منهم وقال:

- ما قرأته الآن هو ترتيب للأحداث التي عشناها حتى بداية الحرب.

فأومأ الآخر برأسه، وعندها خرجت همهمة من الواقفين المعترضين عن سبب الاجتماع، فرد حسن قائلا:

- لقد كتب الشاب تلك الأوراق قبل بداية الحرب بعام.

فنظر له أحدهم في غضب مما سمع، ثم قال:

- ومن الذي أكد لك هذا؟
- هو...

فابتسم العجوز ونظر للآخر في سخرية ، فعلت همهمت الواقفين أكثر، فتابع حسن قائلا:

- يا شيخ إمام إنه في ضيافتي منذ أسبوعين ولم أر منه سوءا ، ولم ير مني سوءا فما السبب الذي سيكذب له؟

فحدق به الشيخ إمام في ضيق، ثم قال بنبرة تدل على الحنق:

- منذ متي ونحن نأمن للأغراب ؟ إنك بدوي منذ نعومة أظافرك وتعي جيدا أنهم مثل الأعداء.
- ولكنه...

فصاح مقاطعا:

- إنني أنظر إليك الآن متعجبا، قل لي بكل صراحة ماذا طلب منك ؟

صوت همهمت الناس من حوله، ونظرة الكهلان له جعلته قلقا من ردة فعلهم، ولكنه أراد أن يخلص ضميره ، فقال:

- إنه يريد أن نهاجم معه المجاورة الثانية، بكل رجالنا.

فصاح إمام بغضب قائلا:

- أجننت أنت يا شيخ حسن ؟

فتطايرت صيحات الجميع وعلت أصوات : ما هذا الهراء ؟ ! سيتحكم بنا مدني ؟! فصمت حسن عندما شعر بخيبة أمل بعد ما أشار له الشيخ إمام بكلتا يديه في الهواء ليستمع لحديث الناس...

فوقف حسن البدوي، ونظر للشيخ إمام مترجي، ولكن نظرته كانت الرد القاطع أن لا، فاستدار وسار باتجاه الخيمة، فتبعه صوت إمام يقول:

- واعلم هذا، لن يجلس يوم آخر في ضيافتنا ، فنحن لا نستضيف المدنيين...

فتابع حسن البدوي سيره باتجاه الخيمة ويفكر في خيبة أمله الذي غره بأنه سينجح في إقناعهم ، بأن البدو سيقودهم مدني!

وفي الخيمة...

دخل حسن البدوي الخيمة والجفاء يظهره وجهه، فرمقه يوسف بأمل ولكن سرعان ما اختفي الأمل بعدما رأي نظرته...

فقال حسن البدوي :

- لقد رفضوا.

ثم أعطاه الأوراق واستطرد قائلا:

- واليوم سترحل في الليل.

فأومأ يوسف برأسه أن نعم، وعلي وجهه ابتسامة توحي بخيبة الأمل، ثم قال حسن:

- اذهب لتقول لأمك، وسأتصرف في سيارة لتنقلك للمجاورة الأخرى...

وعندما نظر حسن ليوسف وجده قد غادر الخيمة بالفعل...

ليذهب للخيمة الأخرى...

وجد أمه تجلس مع لمي ويضحكنا بصفاء نية، فابتسم، فلأول مرة يري أمه تشعر بالأمان وتضحك منذ صغره...

فنظرت له الأم مبتسمة، ونظرت له لمي بقلق مما يظهر في عينيه...

فقال:

- كيف حالك الآن يا أمي ؟

فقالت الأم بلين:

- إنني بخير حال يا بني، وكيف لي أن أمرض ولمي الجميلة بجانبي...

فابتسمت لمي رغما عنها، وقالت:

- كيف سار الاجتماع ؟
- سأغادر الليلة.

فعقدت الأم حاجبيها غاضبة فلم تعتد تلك الكلمة "سأغادر" بدون حرف النون، وقالت متسائلة:

- تقصد سنغادر؟
- لا يا أمي ، سأغادر...
- وحدك!!
- نعم وحدي.
- لما؟
- لأنك هنا بأمان.
- ولكن بدونك!
- سأعود لك.
- ولما ستذهب؟
- لأجد أمير وريم.

ثم صمتت، فصمت، نظر لعينيها فوجد الخوف يمتزج بالحزن من قراره، فهي لم تعش بعيدا عنه أبدا، ولم تجده مصر على الابتعاد هكذا طوال حياته...

فقال ليكسر الصمت:

- لن أتحمل أن أجدك تصابين وسط إطلاق النار ، ولن اصطحبك معي للهلاك، أنا آسف يا أمي...

ثم تابع قائلا لينهي المحادثة بعدما وجد نظرة الأم الراجية أن لا ونظرة لمي الخائفة:

- انه الحل الأصلح لكلينا... لمي والعم حسن هنا سيرعونك أكثر مني

وصمت، بعدما انهي كل شيء، بعدما قرر دون أن ينظر لجانبه، بعدما ولأول مرة اتخذ قرار بدون رجعة، شعرت الأم بقوته، شعرت بأن شخص غريب يحدثها ويأمرها بأن تتركه، فابتسمت!!

ابتسمت لأنه تغيير...

ابتسمت لأنه أصبح رجلا...

ثم قالت:

- افعل ما تراه صحيحا يا بني...

ختام الجزء الأول

****

للتواصل مع الكاتب

على الفيس بوك.. الصفحة الشخصية

محمود جاويش - Mahmoud Gawish

على انستجرام

@Mahmoudgawish22

على توتر

@Mahmoud__gawish